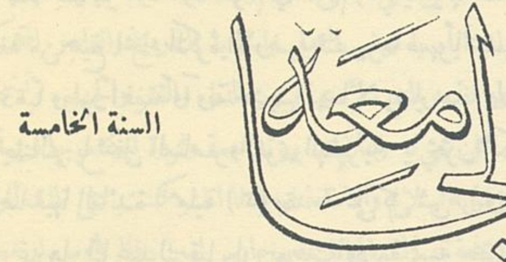
الجزء الاول السنة الخامسة



مجلة اجتماعية علمية تهذيبية تاريخية

نيويورك اول تموز (يوليو) سنة ١٩٠٦ ١٠ جماد اول سنة ١٣٢٤

مقدمة السنة الخامسة

ظهور الجامعة في نيويورك

اول تحية لارض الحرية

لما دخلت بي الباخرة مرفأ نيويورك بعد مسيرها في عباب الاوقيانوس الهائل سبعة ايام كاملة كنت واقفاً مع فريق من الفرنسويين رفاقي في السفر على جانب الباخرة ننتظر الوصول الى تمثال الحرية المنصوب عند مدخل الميناء. فلما صرنا على موازاة هذا التمثال العظيم ومرت الباخرة امامه وهي تشخر وتلهث تعباً من مشقة السفر ونار الشوق الى البر تكوي احشاءها — كشفت رأسي احتراماً للمبدإ الذي يمثله التمثال. بل كشفت راسي رداً لتحيته اذ خيل لي ان تلك المرأة المهيبة القائمة على تلك القاعدة العظمى تمد يدها نحونا لتنير طريقنا — انها روح نيويورك بل العالم الجديد كله جعلت هناك على طريق السفن القادمة لتحييها عند مرورها اجمل تحية وتذكرها بانها دخلت من ظلمة الاوقيانوس الى ميناء السلام ومن بلاد ساد فيها الجهل والجهال والظلم والظلام الى جنة الامن والعلم والعدل والمدنية. — فالف سلام وتحية يا ارض الحرية

لقد جئناكِ الوفًا الوفًا عوالم في عوالم (١) يا ايتها القدر الهائلة التي تنصبُّ فيها العناصر المختلفة من جميع انحاء الكرة الارضية فتصهرها صهرًا شديدًا. وتجعل منها عنصرًا جديدًا. تارةً ذهبًا وطورًا فضةً وآونة حديدا. وما لا يصير هذا ولا ذاك تبيده وتلحقه عادًا وثمودا. لقد جئناكِ يا منخل العناصر والقوى البشرية. يا مخزن الكهرباء والفحم والحديد للعالم اجمع. يا ارضًا فيها الفائدة العملية (٢) مقدمة على كل شيء (وتنازع البقاء) اشد فيها منه في اي ارض غيرها. لنا عندكِ قبل ان نعرفكِ وديعة ثمينة حضنتِها وعطفتِ عليها عطف الام على طفلها وان لم تكوني امًا لها. بقيَّة امة تعيسة جار عليها الجدُّ العاثر والدهر القاهر. فبعد ان كانت شعبًا كبيرًا يمتدُّ من بلاد الكلدان حتى غزة وعسقلان. شعبًا بنى ادسيس وانطاكية ودمشق وتدمر وبُصرى وصور وصيداء — هذه الاسماء اللامعة في تاريخه لمعان الماس في اصدافه — قد اصبح اليوم وشمله شتاتًا وداره خرابًا. مدنه العظيمة سقطتْ من بابل حتى انطاكية. لغته اندثرت وحلت محلها لغة اخرى. فنونه وآدابه وتجارته وصناعته دُرستْ ولم يبقَ منها الا مثل الوشم في اليد. حقوله وبساتينه جفَّتْ وصارت منبتًا للشوك ومطرحًا للهشيم بعد ان كانت «الجزيرة» وحدها تغلُّ ما قيمته اضعاف واردات الدولة العلية العثمانية (٣) ولم يبقَ اليوم من تلك الجنة الزراعية الفريدة في الدنيا كلها سوى آثار الاقنية والترع يغمرها النهر الفائض الذي خرج عن مجراه كما خرج كل شيء فيها عن اصله او تغطيها الاشواك

(١) بواخر الاوقيانوس القادمة الى اميركا كأنها عوالم متنقلة لضخامتها وازدحامها بالمسافرين. وقد كنا في باخرتنا «لاتورين» زهاء الف راكب ٨٠ في الدرجة الاولى و١٢٠ في الدرجة الثانية والباقون في الدرجة الثالثة. ومثلها كثير يدخل الى نيويورك كل يوم قادمة من جميع انحاء العالم

(٢) Intérêt pratique

(٣) يسمي العرب الارض ما بين النهرين «الجزيرة». قال المسيو ليفني: ان الارض ما بين النهرين في العراق وجهات بابل كانت في القرن الخامس قبل الميلاد المسيحي في حال خصب لا يصدَّق فان ملك الفرس خسرو الثاني كان يجمع منها من الضرائب في السنة ما يساوي اليوم ٨٠٠ مليون فرنك. وكانت هذه الضرائب تبلغ ثلث حاصلات الزراعة. فتكون غلة تلك الارض في كل سنة ١٢٠ مليون ليره فرنسوية وبما ان دخل الدولة العلية يبلغ اليوم من ٢٥ الى ٣٠ مليون جنيه في العام فتلك

والادغال (١) فهذا الشعب الذي فقد كل شيء حتى نفسه و بلاده . هذه البقية الباقية من امة قديمة وتمدن قديم قد استودعك اياه يا ارض العمل والحرية التاريخ والقادر المتحكم في الامم والشعوب . وذلك لتصلحي اود نفسه التي شوّهتها قرون الذل والفقر والجهل . وتشحذي عزيمته التي افناها الياس وخسران كل شيء . وتملإِي بيوته سعة وثروة ليرتفع بها ويرقى لا ليسفل و يتدانى . ولقد جئناكِ يا ارض السلام والامانة فوجدنا انكِ كنتِ على تلك الوديعة التي تفرقت في انحاء بلادكِ تحت اجنحة نسرك الهائل خير حارس امين . فالرؤوس ارتفعت . والبيوت ارتقت وامتلأت . والايدي سخت و بالمال عن سعةٍ وكرم طبعٍ جرتْ . والنفوس قويتْ ونشطتْ . والعقول دخلتْ الى قلب المدنية واخذتْ تنظر فيها ولئن كان نظرها تارة بعيون صحيحة وطوراً بعيون عليلة . نعم يا ارض النشاط والقوة لقد اعطيتِ وديعتكِ القوة والنشاط وجدّدتِ حياتها وخلقتها خلقاً جديداً . ولكن هل اعطيتها القوة المعنوية كما اعطيتها القوة المادية . انها تقسم نفسها بسذاجة غريبة طوائف ومذاهب مذاهب : وقد تتخاصم وتتنازع تنازع الاعداء والبعداء . ولكني موقن ان تمثال الحرية الواقف في الميناء كلما رأى ذاك النزاع بين الاخوة ابناء الوطن الواحد والشعب الواحد . فانه يتبسم لهذه المنازعات مع قبحها لانها دليل على القوة والحيوية . لان الميت لا يتحمس لشيء واما الحي وخصوصاً اذا كان حديث العهد بالحياة فانه يتحمس لاقل شيء . وما ابتسام التمثال سوى افتخار بان بلاده العظيمة جددت قوة ونشاط امة كانت في ادنى دركات اليأس والضعف واعتبار ان منازعاتها كلما اشتدت وعظمت انما هي دليل على عظمة ما استفادته آخراً من النشاط والحماسة والقوة . ولكن ما هذا ما عنيته ايها التمثال . انني لا اجهل ما نحن مديونون به لبلادك من القوة المادية . ولكن هل اعطتنا بلادك من القوة اجتماعياً بقدر ما اعطتنا مادياً . لست اعلم الان جواباً على هذا السؤال لانني ما زلت ضيفاً . فسالاحظ وادرس واقارن لكي استطيع الجواب عنه . وانما وظيفة مجلة «كالجامعة» في وسط مادي هائل كهذا الوسط بين مظاهر «تنازع البقاء» ونواميسه الشرسة المنكرة . هي ان لا تنسى ولا لحظة انه

الارض المهملة اليوم والتي تحرقها الشمس طول النهار يساوي دخلها وحدها اضعاف دخل الدولة اربع مرات

(١) قال المستر ويلكوكس المهندس المشهور في مصر حين زيارته ما بين النهرين في العام الماضي ان اعادة تلك البلاد الى حالتها الزراعية العظيمة الاولى لا تقتضي سوى اعادة تلك الترع والاقنية الى ما كانت عليه

يجب عليها لنفسها ولقرائها ان تكون بكل لين ورفق واحترام لجميع الآراء والاشخاص ممثلة لهذا المبدإ · مذكرةً به · داعيةً اليه · حاثة عليه · وهو هو الجامعة الذي يجمع القلوب والنفوس برباط الوداد والتساهل واحتقار اباطيل الدنيا وزخارفها اذا كان يقتضي الوصول اليها دوس تلك المبادىء التي بدونها لا يكون الانسان انساناً

حكمة ابن حزم وفلسفته

حِكمٌ قديمة ولكنها جديدة

كان الوزير الحافظ ابو محمد علي بن احمد بن سعيد (بن حزم) الاندلسي الظاهري اماماً من ائمة الاندلس الاعلام . وكان الفيلسوف الاكبر (ابن رشد) يردُّ عليه في بعض كتبه كلما عرض له رأي مخالف لرأيه . وحسبنا ذلك دلالة على منزلة (ابن حزم) من الحكمة والفلسفة . وقد ورد في كتابنا (ابن رشد وفلسفته) عبارة ردَّ بها هذا الفيلسوف على زميله وان كان مشاركاً له في كثير من الآراء والاحوال اخصها الاضطهاد الذي اصاب ابن حزم من اجل مبادئه وتعاليمه (١) . واتفق اننا قبل السفر من مصر شرعنا في قراءة كتاب (ابن حزم) في (مداواة النفوس وتهذيب الاخلاق والزهد في الرذائل) فاعجبتنا فيها آيات باهرات في الحكمة والفلسفة . فلما شرعنا في إعداد مواد الجامعة هنا وكان الفكر لا يزال متبلبلاً . والعزم متقلقلاً . والعقل بين آثار نيويورك ومفاخرها متنقلاً . فقد رأينا من الفائدة لنا ولقرّائنا ان نملأ شيئاً من فراغ المجلة بحكمة هذا الجهبذ الحكيم

والمتأمل في الشذرات التالية المقتطفة بكل تروٍ وامعان من جميع اجزاء الكتاب يعجبه منها امران ويدعوه امر ثالث الى التفكر والامعان . اما ما يعجبه فهو اولاً جمال لغة ابن حزم ولطف تعبيره ورقة اسلوبه . والامر الثاني ان كثيراً من حكمة ابن حزم ينطبق على لباب النواميس الطبيعية والشرائع العليا الادبية اتم انطباق (٢) وهذا ما يوجب الاهتمام بها اذ لولا ذلك لكانت كغيرها مما كتبه المتقدمون نسيج ترّهات وخليط خرافات . وهذا الامر هو الفارق الحقيقي بين التمدن الحقيقي والتمدن الباطل . والفلسفة الحقيقية والفلسفة الباطلة . نعني ان كل شريعة وكل فلسفة وكل مبدإٍ لا تبنى على (الناموس الطبيعي والشريعة الادبية العليا) فانما هي عبارة عن بيت من الرمال ينهدم عند هبوب اخف ريح من الجنوب

---

(١) قال الفيلسوف ابن رشد في كتابه (تهافت التهافت) في رده على الامام الغزالي بمسألة تلازم الاسباب والمسببات (لذلك العقل ليس بجائز فيمكن ان يخلق على صفات مختلفة كما توهم ذلك ابن حزم) (ابن رشد الصفحة ١٠٧)

(٢) وهذا لا يمنع ان يكون فيها كثير من الاوهام والآراء الضعيفة المرجوحة

او من الشمال · ألا ترى ان مؤلفي القدماء عند العرب يعدّون بالالوف ولا يُعتدُّ الأ بيضع عشرات منهم · فالفارق بينهم انما هو تخلهم بمنخل النواميس الطبيعية والشرائع الادبية الحقيقية · وهذا سبب ارتفاع (ابن رشد) في اوروبا وسائر العالم المتمدن على جميع علماء العرب حتى الفيلسوف ابن سيناء نفسه للذي كان مشهوراً ببن ابناء المشرق اوسع شهرة حالة كون علماء الافرنج لا يكرمونه اليوم نصف اكرامهم لابي الوليد

واما الامر الذي يدعو الى التفكر والامعان فهو ما يستشفه القارئ من خلال كلام ابن حزم من خصومات كان حساده يطاردونه بها وعداوات مهما فعل لم يكن يستطيع ازالتها · وهذه على ما يظهر من (لزوم ما لا يلزم) عند حكماء الزمان في كل آن · وما برحت الجهالة والشناعة عدوة للحكمة والجمال · — والآن ننقل شيئاً من حكمة ابن حزم على أن نعود الى ترجمته وفلسفته في جزء آخر

١ سوء الظن يعدّه قوم عيباً على الاطلاق وليس كذلك الا اذا ادى صاحبه الى ما لا يحلّ في الديانة او الى ما يقبح في المعاملة والا فهو حزم والحزم فضيلة

٢ حدّ العدل (اي تعريفه) ان تعطي من نفسك الواجب وتأخذه · وحدّ الجور ان تأخذه ولا تعطيه

٣ اول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر · واول من يمقت شاهد الزور من شهد له به

٤ لكل شيء فائدة ولقد انتفعت بمحكّ اهل الجهل منفعة عظيمة وهي انه توقّد طبعي واحتدم خاطري وحي فكري وتهيج نشاطي فكان ذلك سبباً الى تآليف عظيمة النفع · ولولا استثارتهم ساكني واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التآليف

٥ لا تصاهر الى صديق ولا تبايعه فما رأينا هذين العملين الا سبباً للقطيعة · وان ظن اهل الجهل ان فيهما تأكيداً للصلة فليس كذلك · لان هذين العقدين داعيان كل واحد الى طلب حظ نفسه · والمؤثرون على انفسهم قليلٌ جداً

٦ صدق من قال ان العاقل في الدنيا متعوب · وصدق من قال انه فيها مستريح · فاما تعبه فبما يرى من انتشار الباطل وغلبته دولته · وبما يحال بينه من اظهار الحق · واما راحته فمن كل ما يهتم به سائر الناس من فضول الدنيا (١)

(١) هذا من قبيل التزهيد في الدنيا وهو امر فات وقته

٧ ان لم يكن لك عدو فلا خير فيك ولا منزلة اسقط من منزلة من لا عدوّ له (١)

٨ لقد سألتُ بعضهم في رفق ولين عن سبب علو نفسه واحتقاره الناس فما وجدتُ عنده مزيداً على ان قال لي (انا حرّ لستُ عبد احد) فقلت له: اكثر من تراه يشاركك في هذه الفضيلة فهم احرار مثلك الاّ قوماً من العبيد هم اطول منك يداً وامرهم نافذ عليك وعلى كثير من الاحرار (٢) فلم اجد عنده زيادة فرجعت الى تفتيش احوالهم ومراعاتها فافكرتُ في ذلك سنين لاعلم السبب الباعث لهم على هذا العجب الذي لا سبب له. فلم ازل اختبر ما تنطوي عليه نفوسهم بما يبدو من احوالهم ومن مرامهم في كلامهم فاستقرّ امرهم على انهم يقدرون ان عندهم فضل عقل وتميز راي اصيل لو امكنتهم الايام من تصريفه لوجدوا فيه متسعاً ولأداروا الممالك الرفيعة ولبان فضلهم على سائر الناس: — كلما نقص العقل توهم صاحبه انه اوفر الناس عقلاً (٣)

٩ ليس من الحلم تقريب الاعداء ولكنه مسالمتهم مع التحفظ منهم

١ نجد فرط المودّة يلتقي مع فرط البغضة في تتبع العثرات

١١ الخطاء في الحزم خير من الخطاء في التضييع

١٢ من اراد الانصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه فانه يلوح له وجه تعسفه

١٣ ثق بالمتدين ولو كان على غير دينك ولا تثق بالمستخف وان اظهر انه على دينك (٤)

١٤ حدّ العفة ان تغض بصرك وجميع جوارحك عن الاجسام التي لا تحل لك فما

---

(١) قد يكون هذا القول صحيحاً وقد يكون باطلاً

(٢) هنا غمزة هائلة لا يُعرف مراده بها (٣) كل من يقرأ هذه الشذرة الجميلة يظن انه يقرأ شيئاً من حكمة حكيم الفرنسويين المشهور «لابرويير» صاحب كتاب «الاخلاق» الذي قال فيه العلماء المتاخرون «انه احد كتب قليلة تشرّف العقل الفرنسوي خارج فرنسا خصوصاً عند الامم الجدية كالانكليز والاميركان» وذلك لان الفرنسويين مشهورون بالخفة كما يقولون. وتشبيهنا حكمة ابن حزم بحكمة لابرويير اعظم ثناء على ابن حزم (٤) كان الاسبانيون واليهود في الاندلس مختلطين بالعرب اشد اختلاط وقد كان زمن عاش فيه الثلاثة «المسيحيون والمسلمون واليهود» في الاندلس بائتلاف تام وذلك في عهد الحكم كما فصلناه في كتاب «ابن رشد وفلسفته»، فقد يكون في هذه الشذرة اشارة الى ذلك الائتلاف

عدا هذا فهو عهر

١٥ استبقاك من عاتبك وزهد فيك من استهان بشانك : — العتاب للصديق كالسبك للسبيكة فاما تصفو واما تطير

١٦ لا تكلف صديقك الاَّ مثل ما تبذله من نفسك فان طلبت اكثر فانت ظالم

١٧ اذا ارتفعت الغيرة (يريد بين المحبين) فايقن بارتفاع المحبة

١٨ اخبرني بعض من صحبناه في الدهر عن نفسه انه ما عرف الغيرة حتى ابتلي بالمحبة (١) وكان هذا المخبر فاسد الطبع خبيث التركيب الا انه من اهل الفهم والجود

١٩ « الحلاوة » دقة المحاسن ولطف الحركات وخفة الاشارات . ورب جميل الصفات « يعني جميل المنظر » على انفراد كل صفة منها بارد الطلعة غير مليح ولا حسن ولا رائع . وهي ايضاً « الفراهة » — « الحسن » هو شيء ليس له في اللغة اسم يعبر به عنه ولكنه محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه . وهو برد مكسو على الوجه واشراق يستميل القلوب نحوه فتجتمع الآراء على استحسانه . وان لم تكن هناك صفات جميلة « اي اعضاء واجزاء جميلة » فكل من رآه راقه واستحسنه وقبله حتى اذا تأملت الصفات افرادًا لم ترَ طائلاً . وكانه شيء في نفس المرئي يجده نفسه الرائي (٢)

٢٠ درج المحبة خمسة . اولها « الاستحسان » وهو ان يتمثل الناظر صورة المنظور اليه حسنه او يستحسن اخلاقه وهذا يدخل في باب التصادق (٣) ثم « الاعجاب » وهو رغبة

(١) ليس في هذا القول غرابة لانه امر طبيعي . وانما الغرابة والملاحة في ان يقول مثلاً « ما عرف المحبة حتى غار » لان الغيرة اقوى مذكيات نار المحبة

(٢) هذا ما يسميه الباريزيون (chic parisien) ومن امثالهم في وصف امرأة لا يدرَك معنى جمالها ادراكاً تاماً اذا نظر الى اجزاء وجهها افرادا وهي مع ذلك اجمل من الجميلات

elle a (je ne sais quoi) de sublime et de beau

(٣) من الغرابة ان نجد هذا الراي في التمدن الاندلسي لان الشريعة الاسلامية تمنع « الصداقة » بين الرجل وامراة من غير زوجه واهله . اما الافرنج اليوم فهذه المسألة عندهم من المسائل العائلية المعمة وهي « هل يمكن ان تتخذ المراة في العائلة صديقاً لها يعاملها وتعامله معاملة الصديق لصديقه دون ان يخشى من خطر وقوع الحب بينهما »

الناظر في المنظور اليه في قربه. ثم « الالفة » وهي الوحشة اليه اذا غاب. ثم « الكلف » وهو غلبة شغل البال به وهذا النوع يسمى في الغزل العشق. ثم « الشغف » وهو امتناع النوم والاكل والشرب الاَّ اليسير من ذلك. وربما ادى ذلك الى المرض او الى التوسوس او الى الموت

٢١ لقد طال همُّ من غاظه الحق

٢٢ رأيت الناس في كلامهم الذي هو فصل بينهم وبين الحمير والكلاب والحشرات ينقسمون اقساماً ثلاثة « احدها » من لا يبالي فيما انفق كلامه فيتكلم بكل ما سبق الى لسانه غير محقق نصر حق ولا انكار باطل وهذا هو الاغلب في الناس « والثاني » ان يتكلم ناصراً لما وقع في نفسه انه حق ودافعاً لما توهم انه باطل. غير محقق لطلب الحقيقة لكن لجاجاً فيما التزم وهذا كثير. وهو دون الاول « والثالث » واضع الكلام موضعه وهذا اعزّ من الكبريت الاحمر

٢٣ مما ينجع في الوعظ الثناء بحضرة المسيء على من فعل خلاف فعله. فهذا داعية الى عمل الخير وما اعلم لحب المدح فضلاً الاَّ هذا وحده

٢٤ من وعظ ببشر وتبسم ولين كانه مشير برأي ومخبر عن غير الموعوظ بما يستقبح من الموعوظ فذلك ابلغ وانجع في الموعظة. وكان صلى الله عليه وسلم « يعني الرسول » لا يواجه بالموعظة لكن يقول « ما بال اقوام يفعلون كذا »

٢٥ تأملت كل ما دون السماء وطالت فكرتي فوجدتُ كل شيء فيه من حي وغير حي طبعه ان قوي ان يقلع عن غيره من الانواع كيفياته ويلبسه صفاته. فترى الفاضل يودّ لو كان الناس فضلاء. وكل ذي مذهب يودّ لو كان الناس موافقين له. وترى ذلك في الغياض اذا احال بعضها على بعض احاله الى نوعيته وترى ذلك في تركيب الشجر وفي تغذي النبات والشجر والماء ورطوبة الارض واحالتها ذلك الى نوعيتها (١) فسبحان مخترع ذلك ومدبره — ثم لا ترى احداً يشبه آخر شبهاً لا يكون بينهما فيه فرق. وقد سألت من طال عمره وبلغ الثمانين عاماً هل رأى الصور (٢) في ما خلا مشبهة لهذه شبهاً واحداً. فقال لا. بل لكل صورة فرقها. وهكذا كل ما في العالم يعرف ذلك. لكن من تدبر

(١) ادهشنا هذا القول من ابن حزم لانه تقدَّم به « درون » العالم المشهور بعدة قرون. ولكن لا غرابة في ذلك فان في كثير من مبادىء المتقدمين بزور مبادىء المتاخرين (٢) يعني صور الموجودات اي اشكالها التي تتشكل بها

الآلات وجميع الاجسام المركبات وطال تكرُّر بصره عليها فانه حينئذٍ يميز بينها ويعرف بعضها من بعض بفروق (١)

٢٦ محن الانسان في دهره كثيرة واعظمها محنته باهل نوعه من الانس : داء الانسان بالناس اعظم من دائه بالسباع الكلبة والافاعي الضارية لان التحفظ من كل ما ذكرنا ممكن ولا يمكن التحفظ من الانس اصلاً

٢٧ ما رأيت العجب في طائفة اقلّ منه في اهل الشجاعة واستدللت بذلك على نزاهة انفسهم ورفعتها وعلوها

٢٨ لعل علمك الذي تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التي. لا كبير خصلة فيها كالشعر وما جرى مجراه (٢)

٢٩ لا شيء اضرّ على السلطان من كثرة المتفرّغين حواليه « يعني الذين لا شغل لهم » فالحازم يشغلهم بما لا يظلمهم فيه فان لم يفعل شغلوه بما يظلمونه فيه (٣)

٣٠ العلوم الغامضة كالدواء القوي يصلح الاجساد القوية ويهلك الاجساد الضعيفة

٣١ من سرّ بشجاعته فليعلم ان النمر اجرأ منه . وان الاسد والذئب والفيل اشجع منه . ومن سرّ بقوة جسمه فليعلم ان البغل والثور والفيل اقوى منه جسماً . ومن سرّ بحمله الاثقال فليعلم ان الحمار احمل منه . ومن سرّ بسرعة عدوه فليعلم ان الكلب والارنب اسرع عدواً منه . ومن سرّ بحسن صوته فليعلم ان كثيراً من الطير احسن صوتاً منه . فاي فخر واي سرور في ما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه . لكن من قوي تمييزه واتسع علمه وحسن عمله فليغتبط بذلك

---

(١) هذا القول من المدهشات ايضاً وتفسيره باللغة الفلسفية الحديثة ان المادة في جميع الموجودات واحدة في الارض كما اثبت ذلك العلاّمة برتلو الكيماوي الفرنسوي المشهور وانما تتخذ اشكالاً « صوراً » مختلفة . وهو ما يسمونه

La diversité dans l'unité

٢ نظن ان شعراءنا الافاضل يتعزون بعض الشيء بهذا الكلام من ابن حزم عن شعراء الاندلس في عصره . وبه يستدل على مقام الشعر يومئذٍ

٣ هذا الكلام البديع لا يحتاج الى حاشية لانه مفهوم بنفسه

بنات الازبكية الجميلات

او

آفة مصر الجديدة

(مباحثة بين ثلاثة)

كتبت تحت سماء مصر في وادي النيل العظيم

١

سمعت يوماً حديثاً جديراً بالتدوين في بطون الاوراق . فقد تسلقت مرة قمة الصخرة الصناعية القائمة في حديقة الازبكية (١) ويسميها العامة الجبلاية اعلوها كالجبل وجلست في اعلاها اقرأ كتاباً معي على موازاة رؤوس اشجار الحديقة بين نعيق الغربان التي كانت تحوم حولي . واني لكذلك واذا باثنين من طلبة المدارس قد صعدا وجلسا بعيداً عني . وانني كثيراً ما دخلت الحديقة فوجدت بين اشجارها وازهارها بعض طلبة المدارس يراجعون دروسهم ويتباحثون فيها وكان ذلك يسرّني مسرّة شديدة حتى انه كان احياناً يشغلني عن الحديقة واشجارها واطيارها فاتلهى بالاصغاء الى مناقشاتهم في الطب والحقوق والصرف والنحو وانا جالس بعيداً عنهم دون ان يعلموا بانني مصغٍ اليهم . وعند كل نكتة او خلاف كان يظهر بينهم كنت ابتسم واتذكر الاوقات المدرسية الحلوة التي كنت فيها مثلهم . نعم كان يسرّني رؤية الطلبة في حديقة الازبكية يدرسون ويستنشقون هواءها النقي وهم بمعزل عن ضوضاء العالم ومشاغله الا انني لما رأيت التلميذين يصعدان الى حيث كنت جالساً وينفردان في الجهة المقابلة لجهتي في قمة الصخرة شعرت بشيء من الانقباض والاستياء . وسبب انقباضي خوفي من الطلبة الذين يطلبون الانفراد عن رفاقهم في اماكن لا تنفذ اليها العيون . نعم انني علمت ان الانفراد عن الناس في الصغر او في الكبر قد يكون في بعض الاحيان حاجة من حاجات النفس تميل اليها اما لرقة شعورها او لألم وجدته في الاجتماع او لمرض يصيبها او لكبر غريزي فيها قد يكون ضرّه اكثر من نفعه . الا ان هذا الانفراد هو

---

١) الازبكية اعظم احياء القاهرة وهي في قلب المدينة حول حديقة واسعة مغروسة بالاشجار الضخمة على شكل دائرة

انفراد مطلق اي انه يكون انفراداً عن الجميع حتى عن الرفيق الصديق · ولكن متى رأيت طالبين او اكثر يطلبون الانفراد معاً في مكان مستتر فعليك ان تخاف عليهم من هذا الانفراد خوفك عليهم من الاسود والذئاب · ومما كان يثبت هذه الشبهة لديَّ معرفتي ان هذه (الجبلايه) كانت من قبل قرارة اقذار وملجأً قبيحاً لمن يريدون الاستتار عن الابصار· حتى اذا تفاقم خطبها ابطلت الحكومة القهوة التي كانت فيها واطلقتها للزائرين · ونعم ما فعلت الحكومة في هذا الشان لولا انه بقي عليها ان تقيم فيها خفيراً يمنع دخول النساء اليها اصلاً صيانةً للشبيبة المصرية التي تتردد على الحديقة · فقد رأيت يوماً في جوف الجبلايه احد الطلبة وهو لا يناهز الواحدة والعشرين في يساره دفتر دروسه وفي يمينه يمين حسناء لعوب

٢

ولما جلس الطالبان التفت اصغرهما الى اكبرهما وقال : هوذا صاحبنا يوحنا · انظر اليه كيف اصبح لا يستطيع جرَّ قدميه · لا ريب في انه يجهد نفسه كثيراً في الدرس والسهر اليس هذا هكذا يا بطرس ؟

فتبسم بطرس وقال : كلا يا احمد ليس الدرس هو الذي فعل بصاحبنا هذا الفعل· بل هنالك سبب اخر اخجل من ذكره لك

فبهت احمد ثم قال : ما هو هذا السبب الذي تخجل من ذكره لي فقد شغلت بالي وهجت بلبالي · افتظن بعد قولك هذا انه يهدا لي بال قبل ان اقف عليه

فقال بطرس : صدقت يا صديقي فالكتمان لا يجدي نفعاً في كل حال · فانك انت قدمت من قريتك الساذجة الهادئة الى مصر منذ ثلاثة ايام فلا بدَّ ان تطلع على ما فيها بعد اسبوع او سنة · وحينئذٍ تباغتك اشياؤها مباغتة الوابل للارض الظمأى التي اشتدَّ بها الاوار · فلا تجد من نفسك قوة على تحمل وقع هذه المباغتة فتستسلم اليها ويجرفك التيار· نعم صدقت يا احمد يجب ان اعطيك قوة التحمل والمقاومة لتقابل بها قوة الضعف والانحلال والا اصابك ما اصاب صاحبنا يوحنا · وهذا ما حدا بي الى التصريح لك بذلك · فاصغِ اليَّ لبلائه عدة اسباب ولكن اهمها واكبرها سبب واحد جميعها ترجع اليه · انظر الى هذه الطريق الممتدة امامنا من فندق شبرد الى نيوبار ولاحظ حركات النساء اللواتي يسرنَ عليها · هؤلاء النساء هنَّ علة البلاء والجرح الدامي الذي يسيل منه الآن خير ما في بدن مصر المسكينة من الدماء

انظر ترَهنَّ كجيش يحملنَ على الطريق حملةً شعواء · انظرت تلك الهيفاء الممشوقة

القوام الرائعة الجمال التي في عينيها طفولية دائمة وثيابها وقبعتها من اجمل واظرف ما يكون ؟ هذه فتاة فرنسوية · انظرت تلك القصيرة الرقيقة التي تلبس رداءً شتوياً طويلاً وهي كالنحلة خفة ورشاقةً عيناها وابتساماتها تجذب اليها الابصار والقلوب كما يجذب الحديدَ المغناطيس؟ هذه حسناء ايطالية · وتلك التي على راسها قبعة حمراء وتتبختر كأنها كليوبتره في شوارع الاسكندرية ؟ هذه سيدة المانية · ثم انظر الى اولئك فهذه انكليزية وهذه نمساوية وتلك يونانية وتلك بلجيكية · ماذا اقول لك ايضاً انك لتجد بينهنَّ حتى فتاة يابانية · نعم يا صديقي فان حسان العالم باسره يحملنَ اليوم على مصر المسكينة حملة عمومية · فان الرزق فيها كثير والتدبير قليل والجمال المحلي نادر وجنون الشبان وتصابي الشيوخ اكثر فيها من كل بلد غيرها حتى في الاجانب والنزلاء الذين يسكنونها · ومن اجل هذا تجد ان الفساد راج فيها اليوم رواجاً لم يُعرف فيها من قبل في اي تاريخ من تواريخها · فاذا جنَّ الليل ترى الطالب منا يترك كتبه ومدرسته · والمتزوّج يهجر بيته واولاده وزوجته · والكبير الجاه يترك جاهه ومنزلته · والشاب العازب غنياً او فقيراً ينسى نفسه وجيبه وصحته · وجميعهم يتهافتون تحت جنح الدجى على صحفة العسل القذر المسموم تهافت خنزير اصاب جيفته · ان جول سيمون الفيلسوف الفرنسوي كان كلما ابصر في حياته العاملات والاولاد تفسد اخلاقهم وآدابهم وصحتهم في المعامل بما يلاقونه فيها فانه كان يصيح ملءَ فيه : ان دم فرنسا يفسد شيئاً فشيئاً · فنحن الآن للحالة التي وصفتها لك نصيح بحق قائلين : ان دماءَ مصر تفسد شيئاً فشيئاً اذا لم تدبروا طريقة لاصلاحها

فدهش احمد وقال : فهمت الان سبب انحلال قوى يوحنا · واذا اضفنا هذا الخطب الجسيم الى مقتضياته ولوازمه كالمسكرات والسهر الطويل والمقامرة لربح المال توصلاً اليه عرفنا التنين الهائل الذي يمتصُّ اليوم دماءَ مصر وثروتها و يفني قوى شبيبتها · ولكن لماذا لا تتداخل الحكومة لاستئصال هذا الشر من اصله وسحق هذه الافاعي الجميلة المطيبة التي تفني قوى ابنائها

فاجاب بطرس : ان سؤالك هذا يتضمن قضيتين · الاولى استئصال الحكومة هذا الشر والثانية (سحق الافاعي الجميلة) كما سميتها · فانا لا اجيبك عن القضية الاولى لان البحث فيها يقتضي اسهاباً وتفصيلاً ليس هنا محله · بل اكتفي بان اقول لك بان الحكومة عاجزة عن مداواة هذا الداء لعدة اسباب اجتماعية وسياسية اهمها ان هذا الداء كائن في اصل الهيئة الاجتماعية نفسها · ولا يثمر الفساد الا فساداً · وهذا بحث اجتماعي فلسفي طويل ارجئ

الخوض معك فيه الى فرصة اخرى . واما القضية الثانية فانني البحث معك فيها بحثاً مسهباً لأمر ساطلعك عليه في خاتمة الكلام اذا كنت لا تقف عليه من تلقاء نفسك . وهذا هو غرضي من كلامي معك في هذا الموضوع الان

اسمع يا احمد . انك سميت هؤلاء النساء (افاعي جميلة مطيبة) فانت اصبت واخطأت معاً . اصبت لان ضررهنّ قد يكون اشد من ضرر الافاعي ولسعاتهنّ اشد ايلاماً . واخطأت لان قولك هذا يوهم بانه يجب ان يحملنَ وحدهنّ تبعة الحالة الهائلة التي امسينَ فيها . ولكنك اذا بحثت قليلاً وجدت العكس . اقرأ ما كتبه عنهنّ اسكندر دياس الصغير (الذي هو في الحقيقة الكبير) وابوه دياس الاب وفيكتور هيغو والفريد دي موسه فترى ما يستدرّ الدموع ويحني الضلوع . فان الاول كتب فيهنّ (لادام اوكاميليا) والثاني (فرناند) والثالث (ماريون ديلورم) والرابع (برنرت) واي انسان ذي احساس يقرا هذه الكتب الاربعة ويرى شقاء المرأة الشقية وعذابها وآلامها من خلال مظاهرها اللامعة وظواهر السرور التي تضطرّ الى الظهور بها ولا يتصدع قلبه كآبةً وحزناً على شقاء هذه الانسانية الساقطة . بل ما لنا وللقصص والروايات فان اللورد كرومر نفسه شهد لهنّ في تقريره السابق شهادة بمقام الف شهادة . فانه قال ما خلاصته ان هؤلاء النساء يشتغلنَ في مصر بشغلهنّ الهائل باغراء رجال يقرضونهنّ شيئاً من المال ثم يقيدونهنّ بهذا الدين تقييد السجين بالقيود . او انهنّ يكنّ متزوّجات او مرافقات فيسهل لهنّ رفاقهنّ هذا الامر لكي يعيشوا بدناءة ونذالة مما يكسبنه وهنّ يخفنَ منهم خوفاً شديداً . وهذا منتهى ما تنحطّ اليه الانسانية في الرجال وهي وا اسفاه درجة احط من درجة الحيوانية لانه لم يروَ عن الحيوان نذالة كهذه النذالة . والغريب ان الهيئة الاجتماعية تدري بهذه النذالة وتغض الطرف عنها . ولما يكلّف ذو عقل مثلك بابداء راي في هذا الامر يصبّ جام غضبه على المرأة وحدها ويسميها (افعى جميلة مطيبة) . ان هذه الافعى يا احمد قد تكون افعى كما تقول ولكنها افعى صغيرة ضعيفة . وهي شهيدة الهيئة الاجتماعية الظالمة التي تتركها تبيع شرفها لتأكل به خبزاً وضحية (الافاعي الحقيقية والخنازير البشرية) التي تنتفع بها . فعلى رؤوس الهيئة الاجتماعية والافاعي والخنازير البشرية يجب ان يصبّ الله والناس ما في الجحيم من نار ابدية ولعنات سرمدية

وربما تقول قد عرفتُ الافاعي الحقيقية . عرفت نذالة الرجال بل البهائم الذين يسترقّون ويستثمرون المرأة الضعيفة دافعين بها الى قعر الهاوية . ولكن لم اعرف من هم

(الخنازير البشرية) الذين ذكرتهم فاصغ الي ً

ان هذه المرأة الجميلة النظيفة المطيَّبة التي تراها في الشارع وهي تبحث بعينيها بين الناس لا تخرج من بيتها الا في المساء لانها تقضي النهار في النوم وذلك لانها تقضي الليل في السهر . فتخرج من بيتها ماشيةً او راكبةً وليس في جيبها احياناً غير اجرة المركبة . وفي خروجها من البيت قد تكون نفسها في اشد حالات الالم . فان الليل مظلم كالمستقبل الذي امامها في آخر عمرها . وترى نفسها وحيدة فريدة بين الزوابع والامطار وسط اناس سكارى باخلاق النمورة والذئاب يزدحمون حولها في الشوارع والحانات . انك تراها تضحك وتبتسم هنا وهناك ولكن ادخل الى نفسها واقرأ افكارها تجد انها لا تفكر في شيء مما حولها . فان فكرها بعيد جداً . هي تفكر بصاحب المنزل الذي يطالبها باجرة منزلها ويتهددها بالطرد او بالحجز . هي تفكر بالخياطة التي بعثت في يوم واحد ثلاث مرات تطلب رصيد حسابها والا رفعت قضية عليها . وبصاحب الرستوران (المطعم) الذي ان لم تدفع اليه قيمة اشتراكها مقدماً رفض اشتراكها . وفوق هذا وهذا — هناك في مكان مستتر شخص ينتظر آخر الليل ليأخذ منها النار المحرقة التي تكون قد باعت عرضها بها . انها فكرت في كل ذلك قبل خروجها من البيت في المساء وبكت قليلاً . ولكنها الان تضحك وتبتسم لانها في السوق . ان الابتسام يجذب اما البكاء فينفر فيجب اذاً ان تبتسم في شفتيها وان كانت تبكي في نفسها . واذا وجدت انها لا تبتسم تبسماً كافياً دخلت احد «البارات» وتناولت من الجعة «البيرة» او الويسكي او الكونياك ما يزيل كل اثر للكآبة من عينيها ووجهها . ثم تنطلق في سبيلها

فهل تعلم الان من هم «الخنازير البشرية» الذين اشرت اليهم آنفاً . هم اولئك الغلاظ النفوس الذين يرون ضعف هؤلاء المسكينات الشقيات فيغتنمون فرصة شقائهنَّ وحاجتهنَّ الى المال على ما تقدم لابتياع شرفهنَّ بابخس الاثمان

ان هؤلاء الخنازير مساوون لتلك الافاعي وكلا الفريقين احطّ من المرأة الشقية التي يدنسونها بملاذهم الخشنة . يقولون انهم يشترون بضاعة معروضة بثمن يدفعونه ولذلك يحسبون انهم قاموا بما عليهم . فلله درّ منطقهم . انني اترك لهم منطقهم واسلم لهم بقولهم هذا اذا شاؤوا دون ان احتج عليهم بشيء من اصول الشرائع والفضائل والآداب فان هذه كلها اصبحت على ما يظهر زياً قديماً جديراً بالبله والمخدوعين في هذه الحياة . ولكني اسأل ماذا يفعلون اذا سمعوا النداء التالي صادراً من صميم قلب المرأة التي يدنسونها وينزلونها منزلة العجماوات . هل يسدون آذانهم دون هذا النداء . فانها مثلاً يمكنها ان تقول لهم ما يأتي :

« لما رايتك في السوق ابتسمت لك في شفق ولكني لعنتك في قلبي · فتبعتني الى البيت لتشتري شرفي · فلله ما اكرمك · انك بما تعطيني اياه الليله ساتمكن غداً من ان آكل واشرب جيداً في هذا البرد الشديد · فشكراً لك ·· ولكن بعينيك اخبرني · لماذا العرض والشرف عندك غالٍ الى هذا الحد ·· انك وضعت على المائدة ذهباً كاملاً فلماذا لم تكتفِ بوضع نصف ذهب ·· يظهر انك تعرف قيمة العرض من انك ذو زوجة ولك امٌ واخت ·· قه قه قه ·· شكراً لك · لا تؤاخذني اذا قلت لك انني حين كنتُ الآن بين يديك اقبل شفتيك كدتُ ابصق في وجهك · ولكنني ملكتُ نفسي وحوّلت غضبي ضحكاً فضحكت الضحكت العالية التي سمعتها · ولما سالتني عن سبب ضحكي الى هذا الحد كان جوابي انني ازددت تقبيلاً لك ·· قه قه قه ·· لماذا تستغرب كلامي · اظنك تقول في نفسك انني كنتُ كاذبة مرائية ·· فمسكين انت ايها الرجل الساذج · ماذا تريد اذاً ان اكون · هل تريد ان اقول لك الحقيقة : فاسمع اذاً · انني اعتبرك (خنزيراً دنيئاً) وهذا هو اسمكم عندنا كلكم ايها الرجال لما نتحادث عنكم · انني احتقرك اكثر مما احتقر نفسي لانني اتسفل لكي آكل خبزاً وانت تتسفل لتشبع شهوةً · انني اقول لك انك نبيه جميل والحقيقة انني اراك حماراً باربع آذان وقبيحاً قبحاً يثير نفسي اشمئزازاً كلما قبّلتك · انني ابغضك واكرهك كما اكره الشيطان والجحيم لانك وهيئتك الاجتماعية الدنيئة لا تسمحون لي ان آكل واعيش الا ببيع اثمن ما لديّ بابخس ما لديكم · لماذا اراك تغضب · وماذا تنتظر مني اذاً — « هنا تبكي » — اتريد ان تاكلني واباركك · اتريد ان تهينني في عرضي وشرفي واحترمك · لو كان في نفسك مثقال ذرة شرفاً وشهامةً لما اغضبك كلامي هذا لانه حق · فلنترك الجدّ جانباً لانه مسيء · ولنبقَ في الهزل · خذ واشرب معي نخب معدتي ومعدتك لانهما كلتيهما تهضمان اشياء مدهشة »

فيا صديقي الصغير احمد بماذا يجيب اولئك البشر عن هذه الشكوى الهائلة · اتعرف لهم جواباً · وهل تطاوعهم نفوسهم بعد سماع ما تقدم على اعتبار هذا الامر بيعاً وشراءً لسلعة معروضة كما مرَّ بنا

وكان احمد مصغياً اشدَّ إصغاء · وقد رايته مرتين يمسح بمنديله دمعتين · فلما سكت بطرس اخذ احمد يده بلهفة وصاح باهتمام شديد — شكراً لك يا صديقي والف شكر · فانني علمتُ الآن انك ما تعبت بتفصيل ما فصلته الا لالقاء درس عليّ بصورة تأنيب وجهته الى غيري صيانةً لي · فكن على ثقة من ان كلامك هذا لا يذهب سدى ·

فانني سانشره في الجهات الاربع . وكل من وقف عليه سيستفيد ما استفدته منه وهو الفرار من الانحطاط الى هذا الدرك الاسفل . ومن لا تعاف نفسه هذا الانحطاط فلا يستحق ان يسمى انساناً

٣

وما اتمّ احمد كلامه حتى سمعت قهقهة شديدة . فالتفتُّ فابصرت يوحنا ثالث الثلاثة واقفاً ورائي يضحك من كلام رفيقيه و يستهزئ بهما لانهما على المبادىء القديمة التي ذكراها . ولست ارى من الحكمة ان انشر ما دار بينه و بينهما بعد ذلك من الحديث لانه قال لهما اقوالاً واعترض اعتراضات يجب الاعراض عنها . الاَّ اذ وجدتُ مناسبة لذلك في مقالة تالية .

فلسطين واشهر بلدانها

(١) لحضرة نجيب افندي نصار في طبريا .

— نابلس —

(هي شكيم التي وقف المسيح على بئر قريب منها وجرى له مع السامرية الحديث المشهور الذي هو اسمى ما في الانجيل)

واقعة بين جبلي عيبال وجرزيم في وادٍ مملوء بالبساتين والاشجار النضرة التي تسقيها مياه ينابيع غزيرة . وتعلو ١٨٧٠ قدماً عن سطح البحر

﴿ سكانها ﴾ عددهم نحو عشرين الف نسمة نحو مائتي سمرة والف مسيحيين اكثرهم روم ارثوذكس والباقون مسلمون . وكثيراً ما كان ينسب لهم التعصب والتعدي حتى قال بعض كتبة الافرنج ان السياح كانوا يخافون المرور بنابلس فكانوا يسافرون من اليهودية الى الجليل بطريق يافا . غير اننا زرنا المدينة مراراً عديدة فعرفنا من اهلها انهم شديدو الاستمساك بدينهم و بصورة عمومية كرماء الاخلاق يدافعون عن الغريب . ومن

(١) هذه تتمة تاريخ وجغرافية فلسطين اللذين نشرهما في السنة الرابعة من الجامعة حضرة الكاتب بعد ان ساح بنفسه في تلك الانحاء سياحات طويلة

مزاياهم الحميدة منع بيع الخمرة وعدم تعاطيها في بلدهم ولذلك لم يسرِ سمها فيه سريانه في باقي المدن السورية

والمدينة مركز متصرفية تابعة لولاية بيروت وفيها عدة جوامع فسيحة اصل بعضها كنائس مسيحية شرقية وغربية وربما كانت هذه الكنائس مجامع للسمرة. وفيها ايضاً مكاتب عثمانية ومدارس خارجية للطوائف المسيحية وديران للروم واللاتين ومستشفى خيري لبعثة انكليزية

﴿ تاريخها ﴾ اسمها السامي (شكيم) نسبة الى شكيم ابن حامور وفيها معامل كبرى للصابون الذي يرسل الى كل البلاد العثمانية والديار المصرية وهو مشهور بجودته

وكتبة العبرانيين دعوها ماموراثا Mamoratha (الممر) لانها واقعة او بالحري كانت واقعة في المعبر الضيق بين الجبلين المذكورين. الى جوارها عاد يعقوب من فدان ارام واشترى لنفسه ملكاً واقام هناك حتى دنّس شكيم ابن حامور ابنته فرحل عنها الى حبرون ولكنه بقي يرسل مواشيه لترعى بجوارها. ولما قسمت الارض بين الاسباط بالقرعة وقعت في نصيب افرايم ابن يوسف ولكنها ما لبثت ان صارت مدينة ملجأ (يشوع ٢٠: ٧) وفيها جرت المؤامرة بين ابيمالك ابن جارية جدعون واهل شكيم على قتل ابناء جدعون السبعين وتمليك ابي مالك عليهم (قضاة ٩) وفي سنة ٩٧٥ قبل المسيح في ايام الملك رحبعام ابن سليمان انشقت عنه العشرة اسباط وملكوا يربعام خادم سليمان فبنى هذا شكيم وجعلها قاعدة مملكته (ملوك اول ١٢) وبقيت كذلك مدة تنوف عن الخمسين سنة وصارت بعد السبي قاعدة السامريين. وقد حاربتها جنود فسباسيانوس واخضعتها وسماها الرومانيون منذ ذلك الوقت فلافيا نيابوليس Flavia Napolis اكراماً لطيطس فلافيوس فسباسيانوس وهي من المدن القليلة التي بقي اسمها الروماني متغلباً على الاسم السامي القديم. وقد بشر الرسل فيها بالديانة المسيحية فانتشرت فيها حتى صارت كرسي اسقفية منذ بداءة القرن الرابع. ويظهر من وصف يوسيبيوس لها في ذلك الزمن انها كانت كبيرة جداً الا ان القسم الشرقي منها الذي كان ممتداً نحو بئر يعقوب كان خراباً

ولما امتدت الفتوحات الاسلامية دخلت نابلس في ايدي الفاتحين وبقيت الى ان اخذها تنكريد احد قادة الصليبيين. وفي سنة ١١٨٤ نهبها السلطان صلاح الدين في عودته من الكرك خاسراً وتغلبت جيوشه عليها بعد واقعة حطين الشهيرة وقتلوا جمعاً غفيراً من اهلها. وفي سنة ١٢٤٢ عاد المسيحيون فاستولوا عليها لمدة سنتين واسترجعها منهم بعد

ذلك ابو علي حليف السلطان بيبار . ويظهر انها بقيت تحت سلطة المسلمين منذ ذلك الوقت وكان باشاوات الشام وعكا في المدة الاخيرة يولون عليها وعلى المقاطعة عمالاً من رؤساء عشائرها الذين اشتهروا بحب الرئاسة والقتال

— جبل عيبال —

يقابل نابلس من الجهة الشمالية وعلوه ثلاثة آلاف ومائة قدم . ويدعى (الاسلامية او الشمالي) وفي سفحه كثير من الصبر الذي يزكو ثمره للغاية وله منظر الى بعيد فيحيط بجبال الجليل والكرمل والطور ومرج ابن عامر وجبال حوران و بلاد صفد حتى جبل حرمون . وعليه بنى الاسرائيليون مذبحاً ونقشوا كلمات الناموس وذبحوا ذبائح سلامة ووقف ست اسباط منهم ليلعنوا كل من يخالف الشريعة كما وقفت الستة الاسباط الأخر على جرزيم لتبارك من يحفظها و يتبع سنتها (تثنية ٢٧ ويشوع ٨ : ٣١) وعلى قمته خرابات قلعة كثيفة البناء ومقام لاحد اولياء المسلمين يقولون ان جمجمة يوحنا الذي قطع هيرودس رأسه مدفونة في داخله

— طلوزه —

على التل الواقع الى الشمال من عيبال ويستدل من اسمها على انها ترصة التي كانت لمدة قصيرة عاصمة مملكة اسرائيل (ملوك اول ١٦ : ٨)

— جبل جرزيم —

جبل السامريين المشهور

ويدعى الطور والقبلي ايضاً علوه ٢٨٨٤ قدماً ويشرف على جبال جلعاد واليهودية وحرمون والكرمل والبحر المتوسط . وعلى سطحه بقايا قلعة مربعة محصنة بالابراج وكثافة جدرانها تختلف من خمس الى عشر اقدام . ويستدل من شكل بنائها انها هي نفس القلعة التي بناها الامبراطور زينو الذي قام في القرن الخامس وهي التي وضع فيها الحامية لحماية كنيسة العذراء التي بناها ايضاً من تعديات السمرة الذين كانوا شديدي الغيرة على جبلهم . اما الكنيسة فقد كانت مثمنة الشكل ولم يبقَ منها سوى الأُسس

وفي الجهة الشمالية الشرقية مقام الشيخ غانم احد اولياء المسلمين . وفي سطح الجبل عدة خرابات أُخر تدل على انه كان مأهولاً يوماً ما . بينها بضع حجارة كبيرة الحجم يعتقد

السمرة انها حجارة المذبح الذي بناه يشوع بامر موسى على جبل عيبال · ويدلون على النقطة التي يزعمون ان ابرهيم أمَّها ليقدم ابنه اسحق ذبيحة عليها في جهة سطح الجبل الجنوبية الشرقية

وقد جُعل لهذا الجبل اهمية خصوصية في التاريخ الديني منذ عودة الاسرائيليين من السبي في نهاية القرن السادس قبل المسيح وعدم رضاهم بمشاركة السمرة لهم في تجديد بناء هيكل اورشليم الثاني اذ استاء السامريون من ذلك الرفض وعدّوه اهانة فقدسوا جبل جرزيم واتخذوه مركزًا لعبادتهم · واذ تزوج منسى احد رؤساء كهنة اليهود بابنة رجل سامري يدعى سنبلط كان وزيرًا للملك داريوس أنكر عليه اليهود ذلك الزواج المخالف لشريعتهم وخلعوه من رئاسة الكهنوت فاراد طلاق الاجنبية لولا ان اباها وعده ببناء هيكل على جرزيم متى تمت الغلبة لداريوس على اسكندر الكبير · فلما انطفأ نور الامل بفوز اسكندر قصده سنبلط واشار عليه بوجوب تفريق كلمة اليهود ببناء هيكل على جرزيم يباري هيكل اورشليم وتقليد منسى الذي كان يعضده حزب من اليهود رئاسة الكهنوت فيه · فوافق اسكندر على ذلك وامر ببناء ذلك الهيكل فبني وصار السمرة يكرمونه اكرام اليهود لهيكلهم في القدس · وبقي عامرًا مائتي سنة حتى خربه هركانوس ابن سمعان المكابي · ولم نعثر اثناء ابحاثنا على ما يشير الى اعادة بنائه غير ان السمرة لم ينقطعوا حتى اليوم عن احترام الجبل وعن تأدية فرائضهم الدينية عليه حالة كون اليهود لم يعودوا يؤدون فرائض الهيكل الدينية منذ خراب هيكلهم في الحرب الطيطسية · ولمناسبة ذكر السامرة وجرزيم نذكر شيئًا عن تاريخ السمرة واعتقادهم لتكمل الفائدة

تذكار انتقال الجامعة

منشور الانتقال من مصر · كتاب وداع وكتاب شكر · قصيدتان

نشرنا هنا بضع صفحات خصوصية في شأن انتقال الجامعة من الاسكندرية الى نيو يورك · ونحن نعتذر الى حضرات القراء عن نشرها ولكنا رأيناها عبارة عن تذكار لهذا الانتقال يُحفظ في صفحات الجامعة

المنشور

قبل خروجنا من مصر (ونرجو ان لا يكون لخروج الاسرائيليين منها) وزعنا بين قرائنا المصريين الكرام منشورًا نقتطف منه ما يلي :—

سبب نوم الجامعة السنة الماضية " ولكن قبل ذكرنا سبب هذا الانتقال لا بدّ ان يطالبنا مشتركوها بسبب نومها هذا النوم الطويل في السنة الماضية · فنحن نرجو منهم ان يعفونا من ذكر هذا السبب لان ذكره يؤلمنا ويؤلم غيرنا · يؤلمنا لانه يذكرنا تعطيل الاشغال وخسارة الوقت والمال بالانتظار واستهداف الجامعة لاستياء قرائها ومريديها وسوء ظنهم بها · ويؤلم غيرنا لان الكلام في ذلك يجرّ الى الكلام في مسائل خصوصية في جملتها مسائل عائلية لا علاقة لها بالمسائل العمومية خصوصًا اذا كان فيها ما يسوء اناسًا نكره اساءتهم وان اساءوا الينا · والجامعة ليس من عادتها ان تطرح المسائل الخصوصية مطرح المسائل العمومية لتجعلها منها · كما انه ليس من شأنها التذمر والشكوى مهما اصابها فانه متى وقع الانسان في حبائل كهذه الحبائل ولم يحسن التملص والتفلّت منها دون ان يترك ريشه فيها فليس له ان يلوم احدًا غير نفسه لان سلامة النية والثقة ليست عذرًا كافيًا له اذ هي مما يجب ان يصحب كما يقولون اهل الاديرة والصوامع لا اهل الاشغال والمنافع · ولذلك لا نحاول تبرئة نفسنا من ذنب القصور في حق الجامعة وحق قرائها في السنة الماضية ونتحمل هذا الذنب وحدنا دون ان نحمل احدًا شيئًا منه او نعطي نفسنا حق الشكوى من احدٍ · اما خسارة الوقت والمال وتعطيل الاشغال فعلى الله التعويض في كل حال · · · "

مسرّة وكآبة وبعد ان ذكرنا اسباب انتقال الجامعة الى نيويورك قلنا ما حرفيته " هذا ما اردنا بسطه هنا اطلاعاً لمشتركي الجامعة في مصر على السبب الذي اوجب فراقنا وتطميناً لهم عن مستقبل الجامعة · ونحن نكتب هنا كلمة (الفراق) ويتنازعنا عاملان : عامل مسرّة وعامل كآبة

« اما الكآبة فهي لتركي بلادنا الشرقية العزيزة التي نشأت فيها اخص منها بالذكر سوريا ومصر — سوريا التي رأيت فيها احسن ايام صباي · ومصر التي رأيت فيها احسن ايام شبابي · ولكن مما يخفف هذه الكآبة عندي عزمي على ابقاء الصلات بين « الجامعة » ومشتركيها من اهل الفضل والادب في مصر وسوريا كما كانت حين كانت ادارتها في مصر · ومن اجل هذا ابقيت لها ادارة في القطر المصري فكأن مركز « الجامعة » في مصر لم يتغير لان ادارتها فيها ما زالت ادارتها · وجميع مشتركيها ومراسليها في مصر يمكنهم مراسلتها ويرسل اليهم الرد على رسائلهم ويجابون الى طلباتهم بعد انقضاء يوم من وصولها · فلا يكون ثمت من فرق بين الماضي والمستقبل سوى ان الجامعة كانت تطبع في « الاسكندرية » فاصبحت تطبع في « نيويورك » وان كان هناك صعوبة او ألم فهما في جانب صاحب الجامعة الذي رحل عن بلاد يحبها وفارق بني وطنه الذين لقي من اهل الفضل والادب فيهم فوق ما يستحق من العناية والوداد

« هذا عامل الكآبة · اما عامل المسرّة فهو لانتقال صاحب الجامعة من وسط صغير الى وسط كبير · فاننا في الشرق في سوريا ومصر وغيرها انما نحن في بلاد صغيرة ضعيفة لم تبلغ المدنية فيها بعد مبلغاً تستحق معه ان تُتخذ استاذاً لاهل العلم والادب · ولذلك نحن مضطرون على الدوام الى تحدّي الاوروبيين والنظر الى اثارهم العلمية والادبية والاجتماعية نظر التلميذ الى آثار استاذه · فالجامعة يسرّها ان تذهب بنفسها الى وسط المدنية الراقية وتغترف من منبع النهر العظيم هناك بدل ان تنتظر وصول مياهه الجارية الى هنا · فان نيويورك لا تفضلها اليوم عاصمة من عواصم العالم المتمدن غير لندن · فهي ثانية عواصم الدنيا · ومستقبلها سيكون في قول بعضهم اعظم مستقبل لاعظم مدينة في العالم

« لقد اقمنا في سوريا عدة سنوات رقبنا فيها احوال بلاد شرقية تحكم نفسها بنفسها (ان صح ان يقال هذا) فاختبرنا ما يؤثره الضعف والعسف والاهمال في احوال البلاد والعباد من خمود الهمم وتدلي الامم · ثم انتقلنا الى مصر وشاهدنا فيها تلك المدنية الشرقية الضعيفة المهملة تنفض عنها غبار الضعف والعسف والاهمال والكسل وتتردى رداء المدنية

الغربية رداء النشاط والعدل والامن والعمل. وقد اختبرنا في مصر هذا الاختلاط بين «الشرقي والغربي» تمزجه يد غربية ورأينا آثاره في الاصلاح والفساد في الخير والشر فاذا هي عظيمة في الامرين. الا ان عظمة الاصلاح هذه لم يستفد منها اهل البلاد ربع ما استفاده منها الاجانب. ولذلك كان نصيب اهل البلاد من شر المدنية الجديدة اوفر من نصيبهم من خيرها. والويل كل الويل للامة التي تختل فيها الموازنة بين الخير والشر الى هذا الحد — فبعد اختبارنا آثار مدنية «شرقية محضة» في سوريا وآثار مدنية «شرقية غربية» في مصر يسرنا ان نختبر حالة ثالثة هي خير الحالات. ونعني حالة مدنية راقية قائمة بذاتها تسن شرائعها لنفسها بنفسها وتطبقها على حاجاتها. وفي ظل هذه الشرائع الحرة السهلة العادلة تعمل في العلم والصناعة والتجارة والزراعة والسياسة اعمالاً تحسدها عليها سائر الامم حتى اوروبا نفسها: فمعيشة مجلة عربية «كالجامعة» في جمهورية الولايات المتحدة بين كلياتها ومكاتبها وجمعياتها ومتاحفها ومصانعها ومزارعها ومجلاتها وجرائدها لما يوجب لها المسرة والارتياح لانه سيؤثر عليها انفع تاثير بما تدرسه وتنشره من آثار ذلك الوسط العظيم

المهاجرون والجامعة «وما عدا هذا فهناك سبب آخر يوجب لها المسرة اكثر من السبب الذي تقدم. وهو ارتياحها الى الظهور بين اخواننا المهاجرين في اميركا الشمالية والجنوبية نخص منهم مهاجري الولايات المتحدة الذين نستودعهم الجامعة كما يستودع الكريم الكريم اكرم شيء عنده. ولولا ما تحققناه من سرور اخواننا المهاجرين في الولايات المتحدة بانتقال الجامعة اليهم وابلاغهم هذا السرور الينا بكل طرق الابلاغ لما نهضت بنا الهمة الى قطع الاوقيانوس اليهم. والجامعة تعطيهم عهداً على نفسها انها لا تالو جهداً في خدمتهم هناك الخدمة التي يرتاحون اليها ويرون فائدة فيها اسوة برصيفاتها التي تنشر في اميركا الشمالية والجنوبية

«على ان سرورنا من تنشيط المهاجرين الى اميركا للجامعة ليس بحديث العهد ولا نحن نقول ما نقوله هنا تزلفاً اليهم فان تنشيطهم لها بدأ من عدة سنوات. ولما قامت القيامة على الجامعة منذ سنتين بسبب المناظرة التي وقعت بشان «ابن رشد وفلسفته» مع العلامة المغفور له الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية السابق قلنا ذات يوم لمن كان يثبط عزمنا عن اتمام هذه المناظرة ما خلاصته: هب ان مصر وسوريا وتونس والجزائر والهند وايران أُقفلت في وجه الجامعة ولم يبقَ بلد مفتوحاً في وجهها غير اميركا وحدها فان مشتركيها في اميركا يكفون للقيام بنفقات صدورها نخص منهم مشتركي البرازيل والولايات

المتحدة . فان مشتركيها في هذين القطرين يبلغون نحو ٥٠٠ مشترك يجمع منهم ما يكفي طبع المجلة ويزيد . وقد قدّرت جريدة الصواب في ريوجانيرو مشتركي الجامعة في البرازيل بثلاثمائة مشترك حولهم الوف من القراء وتقديرها هذا قريب من الحقيقة . ولسنا نذكر ما اقترحه على الجامعة منذ سنوات اخواننا المهاجرون في البرازيل بواسطة وكيلنا في سان باولو من اهدائهم اليها مطبعة تامة الادوات بمبلغ ٤٠٠ جنيه تجمع منهم على سبيل التذكار بمناسبة المناظرة في « ابن رشد وفلسفته » ولا الحمية الخارقة العادة التي اظهرها مشتركونا الكرام هناك في تنشيط المجلة ومساعدتها وشرب بعضهم سرها « نخبها » في القهوات والحانات وجعلها موضوع حديثهم حتى لدى الشعب الغير المتعلم . فان ذكر هذه الامور لا يليق بمجلة كالجامعة تعرف عجزها وضعفها وكونها لا تزال في اول نشأتها فضلاً عن انه يزيد التبعة التي علينا في اهمالنا مجلة نزلت لدى الجمهور هذه المنزلة . ولكننا ذكرنا ما تقدم للدلالة على ما بين المهاجرين والجامعة من صلات الوداد والعواطف . ومنذ ٣ سنوات قام بين ادارة الجامعة ومصلحة البريد المصري خلاف صغير بشان الاجزاء التي ترسل الى اميركا . فلما رأى مدير البوسطة سعادتلوسابا باشا عدد هذه الاجزاء قال لنا مستغربًا « أالى هذا الحد بلغ اقبال المهاجرين على العلم والادب » وليس اصدار خمسمائة نسخة من مجلة الى قطر بعيد كاميركا مما يحق لتلك المجلة ان تفتخر به فان خمسمائة مشترك ليست شيئًا يذكر في عمر مجلة . ولكننا ذكرنا هذا استطرادًا الى القول بان الجامعة لقيت هذا الاقبال من اخواننا المهاجرين وهي بعيدة عنهم الوف اميال فكيف بها اذا اصبحت « مجلتهم » وباتت تصدر بينهم وتستمد قوتها منهم وتشعر بحاجاتهم وتنطق بلسانهم . لا ريب ان اعتقادنا هذا الاعتقاد لهو سبب من اهم الاسباب التي اقنعتنا بالانتقال الى الاقطار الاميركية . وفي يقيننا ان ظننا لا يخيب لان مئات الوف المهاجرين الدين يقومون باكثر من خمس عشرة جريدة عربية تنشر في اميركا الجنوبية والشمالية يسرّهم على ما نظن ان يكون بينهم مجلة « كالجامعة » تساعد رصيفاتها هناك في الخدمة النافعة

الى الملتقى « والآن نقول لقرائنا في مصر والشام وباقي الاقطار الشرقية التي تصل اليها الجامعة « الى الملتقى قريبًا » فان القارئ الكريم يقرأ هذا المنشور ونحن على اجنحة البخار بين السماء والماء نقصد العالم الجديد . وفي اقرب وقت ستصلهم الجامعة في حلتها الجديدة وحالتها الجديدة عائدة بشوق وحنين الى الشرق الذي كانت تصدر عنه لقد ضحينا في سبيل الجامعة حتى الان كل شيء . فقد صرفنا عشر سنوات في الاستعداد

لها و ٦ سنوات في الاشتغال بها فانفقنا عليها من المال والوقت والتعب ما لو انفقنا نصفه في اي عمل كان لعاد علينا بالوف الاموال. وحسب القارىء ان يعلم ان كتاباً واحداً من كتب الجامعة ككتاب «ابن رشد» انفقنا على طبعه في اربعة آلاف نسخة ٨٥ جنيهاً والان نفد كله. وكذلك «اورشليم الجديدة» وانني رأيت في بعض الليالي الفجر يطلع عليَّ وانا وراء مائدة العمل اسمع زقزقة العصافير بعد راحتها في الليل دون ان احسدها على راحتها لانني كنت ملتذاً بتعبي مسروراً بنتيجته. ولسنا نجهل ان الضحايا التي قدمناها للجامعة في السنوات الماضية والقوى التي انفقناها فيها اعظم كثيراً من النتيجة التي ترجى منها. وان الدنيا لا تخرب اذا ابطلناها قطعياً. ولكنا رأينا من الخرق في الرأي ترك صناعة صرفنا كل العمر في درسها واختبارها للشروع في صناعة جديدة لا سيما واننا كنا راضين كل الرضى عن صناعتنا مسرورين بنتيجتها قبل ان تركنا الضرر بثقة عمياء يقع علينا. والضحية الجديدة التي اقدمها الان «للجامعة» فوق الضحايا القديمة هي تركي الاهل والوطن والخلان والابتعاد عن بلادنا العزيزة. ولكني اظن ان هذا البعد سيكون وقتياً. لان اقصى اماني رجل باخلاق مضرة بصاحبها احياناً كاخلاقي هي ان يجمع من عمله في حياته شيئاً يجعل منه لنفسه دخلاً صغيراً ليعيش به في آخر عمره في الخلاء والفضاء بمعزل عن عدوان الكبار وغدر الصغار. ولست اجد «انا الشرقي قلباً ونفساً» مكاناً لهذا الامر افضل من جبال لبنان او اطراف السودان حيث الانسان يستطيع ان يعيش بهدوء وبساطة وصحة في النفس والبدن معيشة الفلاحة والزراعة التي هي انفع له وللناس الذين حوله من كل المجلات والكتب والاوراق. — ولذلك اقول الان لبلادنا مصر والشام «الى الملتقى» ولا اقول لها «الوداع»

كتاب وداع و كتاب شكر (١)

الكتاب الاول

حضرة الرصيف الفاضل

نشرت اليوم بين قراء «الجامعة» في مصر وخارج مصر كتاباً ذكرتُ لهم فيه سبب انتقال الجامعة الى نيويورك وقد بعثتُ بنسخة من هذا المنشور اليكم لتتفضلوا بالاشارة اليه

(١) الكتاب الاول كتبه صاحب الجامعة الى صحافة مصر قبل سفره والكتاب الثاني الى صحافة نيويورك بعد وصوله

في جريدتكم الغراء لكي يقف عليه من لم يصل ذلك المنشور اليه من قراء الجامعة

وانني افارق مصر باسف شديد لفراقها لانها الوطن الشقيق الذي صرفتُ فيه احسن ايام شبابي كما قلتُ في المنشور ولقيت فيه من عناية اهل الادب والفضل ووِدادهم فوق ما يستحقه رجل مثلي . وسيصلكم كتابي هذا وانا على اجنحة البخار بين السماء والماء قاصداً قلب مدنية الولايات المتحدة وثانية عواصم العالم . ولكن مفاخر مدنية الولايات المتحدة مهما عظُمت وجلّت لا يمكنها ان تنسيني جمال الوطن الشرقي وسذاجته والامانة له لانني على قول المتنبي

خلقتُ الوفا لو رجعتُ الى الصبى لفارقتُ شيبي موجع القلب باكيا

فارجوكم ان تتفضلوا بنشر هذا الكتاب للرصفاء والاصدقاء والقراء الذين لم اقضِ واجب وداعهم قبل سفري فراراً من زيادة الم الفراق عندي وهو التحية الاخيرة التي اخطها لحضراتهم تحت سماء مصر العزيزة التي لا انساها وان بعدت الدار وشط المزار

هذا وانني ارجو ان تشرفوني بكل خدمة تقتضيها مصالح جريدتكم هناك لانني كصحافي نشأ في مصر ولم يضنّ عليه اكثر رصفائه فيها بالمساعدة والتنشيط يسرّني ويشرّفني ان اعتبر نفسي ممثلاً للصحافة المصرية في اميركا لدى مئات الالوف من اخواننا المهاجرين ورصفائنا هناك

وتفضلوا بقبول جزيل التحيات والاكرام

الكتاب الثاني

نيويورك في ١٩ حزيران سنة ١٩٠٦

حضرة الرصيف الفاضل

لم انتظر صدور الجامعة لاشكر حضرتكم على ما تفضلتم به عليّ في جريدتكم الغراء من عبارات الترحيب والتنشيط قبل وصولي الى نيويورك وبعده . فانا اشكر لجنابكم الان شكر رصيف يعجز عن ايفائكم حق فضلكم واسأل الله ان يقدرنا جميعاً على الخدمة النافعة في صناعتنا الشاقة

اما شكري للجالية السورية على اختلاف طوائفها في اميركا خصوصاً في الولايات المتحدة وعلى الاخص في نيويورك فان قلمي ولساني عاجزان عن الاعراب عنه . وحقاً ان رجلاً ضعيفاً مثلي لم يعمل بعد في حياته شيئاً يُذكر لا يستحق كل هذه العناية من اخواننا في دار هجرتهم . ولكني احمل منهم هذه العناية التي اخجلتني في بعض الاحيان لتجاوزها الحد

الذي كنت انتظره على محمل التنشيط والتشجيع مضافاً اليها الشعور الذي يشعر به الغريب حين استقباله الغريب

اجارتنا انّا غريبان ههنا   وكل غريبٍ للغريب قريب

فانا اقول لحضراتهم الان بلسان صحيفتكم الغراء قولاً خارجاً من صميم القلب انني ممتنٌ لهم اعظم امتنان شاكر ما اظهروه لهذا العاجز من الغيرة والمروءة مما لم يعتد اهل العلم والادب مثله في بلاد الشرق = ولا عجب فنحن تحت سماء اميركا ام الفضل. وهذه العناية منهم كانت اعظم منشط لي قبل ابتدائي العمل عندهم اذ صرت اشعر الان ان عزيمتي زادت اضعافاً. وهذا منهم اعظم فضل عليَّ اعترف لهم به جهراً

فارجو ان تتفضلوا بنشر كتابي هذا كشكر عمومي لحضراتهم وشهادة افتخار بما صار اليه المهاجرون بعيداً عن سوريا ومصر من الشعور الراقي والتقدم ادبياً ومادياً جرياً مع حالة الوسط الذي يعيشون فيه

وتفضلوا بقبول جزيل التحيات والسلام

غزل المتقدمين والمتأخرين

وداع — ولقاء

وقبل نشر القصيدتين التاليتين اللتين نشرتهما مرآة الغرب الغراء لا بد لنا من القول ان الفاضلين اللذين نظما هذه الابيات لم يقصدا بها سوى مجاملة صديق تخفيفاً لوحشة السفر ومرارة الغربة عنده. وقد قيل اعذب الشعر اكذبه. وان عصراً يُستجدى فيه الاغنياء بالشعر حتى اصغرهم واحقرهم غير كثير عليه ان يُجامَل فيه اهل العلم والادب مجاملةً قلما تعوَّدوها. زد على ذلك انك اذا وقفت على شعر المتقدمين من فطاحل شعراء العرب ورأيت فيه تغزلهم (بالرقمتين) و (سقط اللوا) والعقيق وغيرها خُيل لك انها اماكن عظيمة وجنّات فيحاء مع انك لو شاهدتها عن كثب لما رأيتها. الا رمالاً وصخراً وارضاً حقيرة تحرقها الشمس بياض النهار. ومن هذا القبيل هذا الشعر الجميل. الا اننا حفظناه كاثر لسفرنا على سبيل التذكار

احتى الوداع ابى ان يكونا   وحتى الفراق نراه فنونا
اما يتقي ربه راحلٌ   اذاب القلوب وافنى العيونا
دعاه الفراق فكان الجواب   وراح يهيج الاسى والحنينا

فيا لك يوماً شديد البلاء ويا لك خطباً ابى ان يهونا
فتى الشرق مالك فارقته وكنا نراك بهذا ضنينا
وقمت تصانع فيه الخطوب مقام اريب يسوس الشؤونا
تُسيغ الحوادث حلواً ومرًّا وترضي الليالي يضاً وجونا
فاي المكاره اعيا عليك واي الخطوب قضى ان تبينا
وماذا دها الشرق والساكنيه فحوّلت رحلك في الآخرينا
واطلعت شمسك في غيره وقد كنت تُطلعها فيه حينا
لعهدي به مطلعاً للشموس تضيء الظلام وتجلو الدجونا
فكيف انجلى عنه ذاك الضياء واعيا بنوه على المرشدينا
لقد دان من قبل بالمأثرات اخاه فما باله اليوم دِينا
كفى برحيلك عارًا عليه وشجوًا لقوم به يعقلونا
تركت وجوههم شاجباتٍ واشقيت انفسهم اجمعينا
وهجت النهى فاغتدت طائرات مطار اللواتي فقدنَ الوكونا
وغادرت كل فؤادٍ يعاني مصاباً دخيلاً وداءً دفينا
فيا لك جرماً جُزينا به وكان الجزاء على المجرمينا
شقينا بهم فسئمنا الحياة فاي شقاءٍ اذًا قد لقينا
يرون المحامد موتاً زؤاماً وطيب الاحاديث امرًّا مهينا
اليك اعتذاري فتى الشرق عنهم ومثلك من يعذر الجاهلينا
عليك سلام صديق طوى على صدق ودك قلباً امينا
يصون لك العهد مهما اضاع مضيع الحوادث عهدًا مصونا

دمنهور في ١ ايار سنة ١٩٠٦ (احمد محرم)

رجلٌ عمره ثلاثون عاماً كاملٌ جسمه طويل القامه
اسمر اللون ذو محيا جميلٍ كل وقت ترى عليه ابتسامه
واسع الجبهة التي يستدلُّ المرءُ منها على العلى والشهامه
لو تسنى جماله لفتاةٍ فعلى مثلها تقوم القيامه!
لو تأملت فيه كنت ترى في وجههِ للذكاء الف علامه

افندي فياض وحوادثها عائلية وهذا الذي يحببها الى الرجال والنساء · غير انها في ذلك الموضوع الذي يجرح الكلام فيه كل فؤاد · انها قصة فتاة ابنة رجل فقير يحرس الصيد لغني كبير أُودعت في قصر ذلك الغني لتشب على الادب والثروة غير انها راقت في عين الغني فطارحها الغرام واغواها · فاحست زوجة الغني بان الفتاة صارت حاملاً ولكنها لم تعرف من هو شريكها في تلك الجناية فطردتها وخرجت الفتاة في ديجور هذه الحياة تكافح الدهر ويكافحها بعد ان علم ابوها بالامر وغضب عليها · واخيرًا ولدت ابنها وتمكنت من حيلة اودعته بها في دار ابيها · ثم سافرت الى باريس ودخلت مع اخواتها الشقيات في وادي الهموم ودار جهنم ذات ريح السموم

وما زالت على ما كانت فيه حتى اثرت وصارت لها القصور الباذخة والاراضي الواسعة والدخل العظيم · وحدث ان الغني الذي كان سبب مصائبها وهمومها عثر بها فعرض عليها غرامه فاعرضت عنه غير انه بذل كل شيء في سبيل رضاها فقبلته وكثيرًا ما كانت تعنفه على الماضي وتنغص حياته

وفي يوم من الايام تعرفت هذه السيدة بشاب شاعر جميل وطارحته الغرام وعلم الغني بالامر فغار من الشاب واضمر له الشر · ودعت السيدة يومًا ما رجلاً يجهز لها الصيد في احد قصورها حيث ارادت ان تمضي فصل الصيف فاجتمع في غرفتها ثلاثة : حارس الصيد والشاعر الجميل والغني المذنب · وظهر اخيرًا ان حارس الصيد هو ابوها والشاعر الجميل هو ابنها فلما عرف الغني انه كان يغار من ابنه على امه اراح نفسه واراح غيره بان انتحر

وعادت السيدة الى ابيها وابنها وعاشوا بسلام · ولولا ما في هذه الرواية من هناء عيش البغي بعد ثروتها واجتماعها باهلها على اسهل سبيل لكانت الرواية من اجمل الروايات · وكان الجدير بالمؤلف ان يظهر آلام البغي في آخر حياتها وامراضها واحزانها وفقرها لا ان يظهرها بمظهر الغنى والنعيم والعز المقيم · فلعل فتيات القاهرة لا يغتررنَ بقصة ابنة حارس الصيد فانها قصة ليس الاَّ

القاهرة (محمد لطفي جمعه)

الفرق بين مصر ونيويورك

الرسوم المنشورة في مقالة (روسو ومدام دي وارين) في هذا الجزء مأخوذة من بيت روسو نفسه في شمبيري وقد صنعها معمل الرسوم هنا مع ثلاث كليشات اخرى في يومين ولو كنا في مصر لانتظرناها عشرة ايام . . .

جلستهم الاولى فكانت كجلسة فلاسفة اليونان من تلامذة ارسطو وافلاطون· ودار البحث بينهم على شؤون شتى منها ما يرقي الصحافة المصرية ويجمع كلمة منشئيها وغير ذلك مما تدعوهم اليه حرفتهم· وقد انصرف الكل بعد هذا الاجتماع وواحدهم اعلق بصاحبه من ذي قبل

والذي سرّني في هذا الاجتماع انه رمز للجامعة الكبرى التي تجمع كتّاب الصحف العربية في مصر وسوريا واميركا تشبهاً بالصحف الغربية· ولا اظن ان صحراء افريقيه والمحيط الاطلنطيكي يكونان عائقاً بين قلوبنا وقلوب اخواننا في العالم الجديد· فاننا كلنا قوة واحدة وزعتها الطبيعة في اطراف العالم· فحبذا لو كثرت الصلات والروابط بيننا وكانت صحافة مصر اكثر اهتماماً بشقيقتها الصحافة الاميركية العربية

***

اخبار الشعراء كثيرة وسيد شعرائنا حافظ افندي ابرهيم يجعل الانسان حائراً اذا شرع في كتابة اخباره· فقد شرع منذ نصف سنة في تعريب رواية (مكبيت) من الفرنسوية الى العربية نظماً ونثراً· وكان يعدّها للتمثيل في دار التمثيل العربي وكثيراً ما كان يقول لنا «انني ارى شكسبير في كل يوم اكبر منه في اليوم السابق فانني لم اظفر بمعانٍ اجمل ولا افكار اسمى من معاني هذا الرجل وافكاره· واذا قُسم لي في هذه الحياة عمل عظيم فلا يكون الا نقل روايات هذا الشاعر العظيم الى العربية» غير ان حسن الطالع لم يكمل جميله مع حافظ فان المسكين اجهد نفسه في التعريب وفي قرض القصائد الاجتماعية الجميلة حتى اصيب بضعف المعدة وهو داء العظماء والعلماء· فاشار عليه الاطباء بالانقطاع عن العمل فانقطع ··· ولما حان وقت الالعاب الاولمبية سافر الى اثينا فشاهد الالعاب وتمتع برؤيتها وزار آثار اثينا وبلغنا انه نظم شيئاً قليلاً في البحر ومثله عند رؤيته الاكروبول· غير انه يضنّ بالنظم ليظهر في الجزء الثاني من ديوانه الذي سيصدر قريباً

***

اما مراسحنا فعلى ما كانت عليه ولا زلنا نشاهد الروايات القديمة التي مجتها نفوسنا وسئمتها اذواقنا· وليت الشيخ سلامه حجازي الذي يُنتظر منه ترقية هذا الفن يعمل ما عمله صاحب الملعب المصري فان هذا يمثل الان على مرسحه روايات جديدة بعضها حسن مقبول· ولكن مزيته انه في كل شهر او شهرين يمثل رواية جديدة

ومن هذه الروايات رواية ابنة حارس الصيد وهي منقولة عن الفرنسوية بقلم جناب الياس

رسائل ومسائل

ننشر في هذا الباب الرسائل والملاحظات التي ترد على المجلة في المواضيع المفيدة ونجيب فيه عن الاسئلة الصحية والعلمية والمنزلية التي تُلقى علينا معتمدين في ذلك على المصادر الموثوق بها كل الثقة · وقد نشرنا في هذا الجزء « رسالة مصر الاولى » (١)

رسالة مصر

الالفة بين الصحافيين · اخبار الادباء · حافظ ابرهيم · المراسح والروايات التمثيلية · رواية ابنة حارس الصيد

سألتني الجامعة ان اكتب لها من القاهرة عن اخبار الادباء واني اشكر الادباء لانهم ملأُوا حقيبتي باخبارهم · الا انني احار في الابتداء والانتقاء

في الخامس من هذا الشهر (٢) اي يوم الاحد الماضي اجتمع خمسة عشر كاتباً من كتاب الصحف واحد من المؤيد واثنان من الاهرام واثنان من الظاهر وصاحب جريدة حكمت الفارسية وصاحب جريدة التمدن الاسبوعية ومؤلف كتاب اشهر مشاهير الاسلام وكاتب « دفاع بلفنا » و « تاريخ حرب اليونان » وصاحب جريدة « الكلمة الحرة » وواحد من المقطم وصاحب جريدة النيل — اجتمع كل هؤلاء الكتاب المختلفون في المشارب والمذاهب والمبادىء على ظهر باخرة قامت بهم من روض الفرج الى القناطر الخيرية وهبَّ عليهم نسيم الصباح الذي ينعش الافئدة و يعيد القوة الى الاجسام · فقضوا ساعتين في النيل وصلوا بعدها الى حدائق القناطر الخيرية التي وصفها احد سياح الافرنج بانها جنة على الارض وانها اجمل من غوطة دمشق · فجلسوا تحت شجرة كبيرة اظلتهم جميعهم وعقدت

(١) عهدنا الى احد الكتاب الافاضل في مصر من اصدقاء الجامعة ان يبعث اليها في كل شهر او نصف شهر برسالة وجيزة تكون عبارة عن تاريخ لحوادث مصر الادبية في كل شهر وهذه رسالته الاولى · وسيرى القراء من رسائله وسلامة ذوقه فيها ما يدلهم على ان الجامعة قد اكتشفت لهم هذا الكاتب الجديد اكتشافاً كما يُكتشف المعدن الثمين (٢) مايو « ايار » اذ وصلتنا هذه الرسالة قبل وصولنا الى نيويورك

ستنقل عظام روسو من البانثيون وتطرحها في نهر السين » — قلت فتأمل البون الشاسع بين هذا الرأي والرأي الذي تقدَّمه واحكم بعد ذلك في ما يجب على البشر من التأني والتساهل والعقل ليعيشوا معاً بسلام ووداد دون ان يكون لتلك الخلافات العظيمة في الراي والمعتقد تاثير عليهم

ولما اطبقت السجل كتبت فيه بالفرنسوية اسمي واسم الجامعة ووضعت بجانبهما هذه العبارة « حين مروري قاصداً اميركا » ولما كتبتها سمعت صوت بلبل يغرّد على الشجرة وراء النافذة . ذلك ان الفصل فصل ربيع وكان روسو لا يحب شيئاً في الربيع هناك مثل تغريد البلابل . فخيل لي ان بلابل روسو حين كتبت تلك العبارة تقول لي « أقم هنا ولا ترحل » فابتسمتُ واجبتها في نفسي « هذا ممكن في آخر العمر لا في أوله »

ولما عدتُ من البيت الى المركبة التي كانت تنتظرني خارجاً كنتُ ممتلئ النفس غزلاً وشعراً . فاردت قطف وردة او زهرة من الحديقة فلم اجترئ على ذلك احتراماً للبيت . فخرجتُ وبحثت خارج البيت في الطريق عن زهرة احملها تذكاراً لزيارتي الاولى . فوجدت خارج باب الدخول زهراً ابيض جميلاً فمددت يدي وقطفت بضع زهرات منه ما زلت احفظها . فاصابت كفي حين مددتها نباتاً شائكاً بجانب الزهرة فشاكها وآلمها . فضحكت لانه خطر لي حينئذٍ هذا الفكر « جان جاك جان جاك . انك قضيت عمرك وانت تشكو الزمان والناس ومصائب الحياة . فاعلم الآن اننا في هذه الحياة المدنية الجديدة . التي كنت تحمل عليها حملات شديدة . والتي صار فيها « تنازع البقاء » بين الناس عبارة عن صراع بين وحوش عنيده . صرنا نجد الآلام والمتاعب حتى حين قطف الازهار التي نراها في طريقنا

وقد اقمت في شمبيري اربعة ايام . وزرت الاحراش والحقول حول البيت وقرأت للمرة الثانية في ظل اشجارها الظليلة ما كتبه روسو عن تاريخ حياته وإقامته في تلك الجهات وقصته مع خليلته مدام دي وارين وخليلات اخرى غيرها عرفهنَّ بعدها . وموعدنا بنشر ذلك جزء تالٍ

اقتراح على الادباء

يُقبل الجواب نظماً ونثراً

في هذا الجزء الصفحة (١٠) السطر ٢٥ في الحاشية الثالثة « مسألة عائلية اجتماعية » تقترح الجامعة على الادباء البحث فيها والجواب عنها نظماً او نثراً . ونشترط ان لا يتجاوز الجواب خمسة اسطر في الجامعة

وما كتبوه . فهناك سجلاًن سجل هذا العام وسجل امتلأ في مدة ثلاثة اعوام . فتصفحتها كلها بدلالة المرأة حارسة المكان وهي سيدة متأدبة تحرس البيت هي وحماتها . ثم اخترت منها بضعة اسماء ونقلتها ولو اردتُ قراءتها كلها لاقمت في البيت اسبوعاً . واليك ما نقلته منها

رأيت في السجل توقيع المسيو « اناتول فرانس » احد رجال الاكاذيمية وهو أشهر كتاب فرنسا اليوم (١) وتحت توقيعه هذه الكلمات « الكرامة لروسو وبرجيره » والتاريخ ١٨ ابريل سنة ١٩٠٣ وبرجيره هو بطل كتابات اناتول فرانس . وفي صفحة اخرى توقيع المسيو ريشبين وتحته هذه الكلمات «وانا افتكر في اناتول فرانس» اي وقَّع وهو يفكر فيه تشبيهاً له بروسو . وهناك توقيع الكونتس دي نوايل الكاتبة الفرنسوية المشهورة وفوقه هذه الكلمات « يا عزيزي روسو . يا عزيزي جان جاك . انت الرجل الذي كنتُ اكثر الناس حباً له والذي اثنيت عليه واحتفلت بأمره اعظم احتفال تحت اسماء متعددة » تعني اسماءها التي تستعيرها للكتابة . — وهناك توقيع بسيط « بول ياسينت لوازون ٢١ اكتوبر سنة ١٩٠٣ »وهو الكاتب المشهور الذي كان كاهناً فرنسوياً وترك الكهنوت . وتوقيع المسيو موريس بارس الذي جُعل في هذا العام عضواً للاكاذيمية الفرنسوية . والبارونة Kharuacé ولعلها اجنبية لا فرنسوية . وبين هذه التواقيع تواقيع لا تحصى (٢) مقرونة بعضها بشعر ونثر اطول وابرد من ليالي الشتاء و بعضها كلام موجز كايجاز العلماء . وجميع ما قرأته منها انما هو تغزل وهتاف لصاحبي المكان . منهم واحد كتب يقول " هنا دماغ فرنسا مصدر الحس ودقة الشعور فزوروا هذا المكان زيارتكم لهيا كل العبادة » ولم اعثر الا على قادح واحد واليك ما كتب " اذا عادت فرنسا الى نفسها يوماً من الايام فانها

(١) ترجمنا له خطبة في الجزء العاشر السنة الرابعة

(٢) وجدنا بينها توقيعين بالعربية احدهما قريب لسعادة بطرس باشا غالي ناظر الخارجية في مصر . ولما ابتسمنا لقراءتهما قالت لنا حارسة المكان « هل المسيو يفهم هذه الكتابة الصينية » فضحكت ولم أُجب . وبما ان حمامات اكس لا تبعد عن شمبيري سوى ساعة في القطار وكثيرون من افاضل المصريين يفدون كل عام على تلك الحمامات فغير بعيد ان الذين يذوقون الادب منهم يقصدون بعد اليوم شمبيري من حمامات اكس « ليأخذوا فيها حمَّاماً من الشعر والادب والجمال الطبيعي »

Réduit par Jean-Jaque habité,
Tu me rappelles son génie,
Sa solitude, Sa fierté
Et ses malheurs et sa folie.
A la gloire, à la vérité,
Il osa consacrer sa vie,
Et fut toujours persécuté,
Ou par lui-même ou par l'envie. (1)

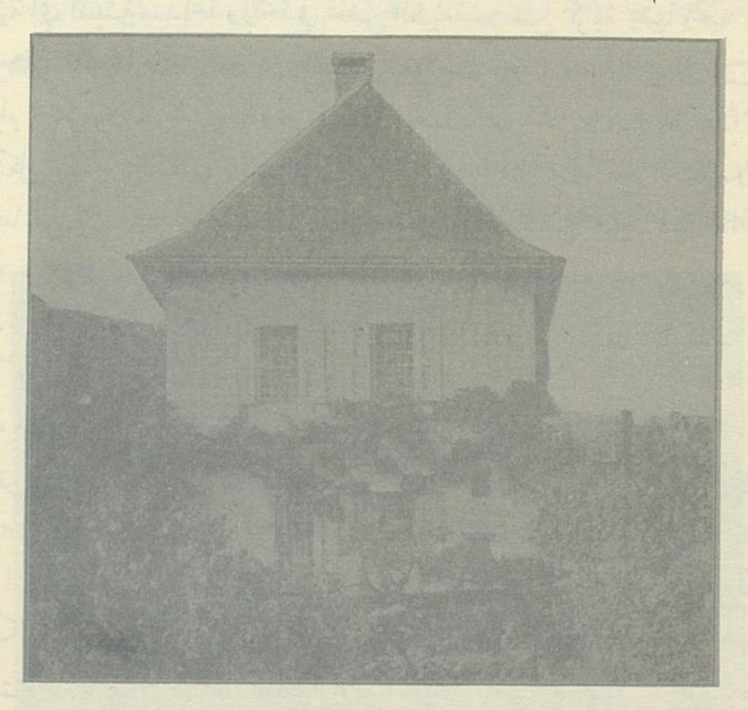
وهذه الابيات البديعة نظمتها على ما يُقال مدام دابيناي التي ورد ذكرها كثيراً في تاريخ حياة روسو وقد نقشها وجعلها هناك هيرو وسيشل في سنة ١٧٩٢ عند ابتداء الثورة الفرنسوية

ولما قرعتُ الجرس المعلق فوق الباب جاءت حارسة المكان . وهي مكلفة في ذلك البيت من قِبل الحكومة باستقبال الزائرين وقبض اجرة الزيارة وقيمتها نصف فرنك عن كل شخص . والبيت طبقتان في الطبقة السفلى غرفتان الاولى غرفة المائدة في وسطها المائدة التي كانا يا كلان عليها وفي خزانة كبرى الى ما وراءها صحون عديدة كانوا يستعملونها . ووراء غرفة المائدة قاعة الاستقبال وفي وسطها مائدة عليها شيء كثير من الصور التي نشرناها في هذه المقالة ولا توجد في غير هذا البيت وهي تباع للزائرين . وبجانبها السجل الذي يقيد فيه الزائرون اسماءهم وعواطفهم . وفي الطبقة الثانية من البيت (مُصلًّى) مدام دي وارين وهو مذبح للصلاة مزين بالايقونات والصور وبجانبه غرفتها وهي تشتمل على سريرها وكلة السرير ومرآتها وغير ذلك . وان القطن المحشو به فراشها بادٍ للنظر لتقادم عهده . وارض غرفتها الخشبية قد اكلها السوس والاقدام فلا بدَّ من تجديدها او سترها بطبقة خشبية بعد ١٠ او ٢٠ عاماً . والنظرة من نافذتي غرفة مدام دي وارين الى شمبيري وما حولها من الجبال والاحراش نظرة لم ارَ مثلها في حياتي كلها لا في قمة الاهرام ولا في اعالي الارز وصنين . وبجانب غرفة مدام دي وارين غرفة روسو وفيها سريره الجميل والمرآة التي كان ينظر فيها وجهه . ولم نصف هذه الغرف كلها لاننا اخذنا رسومها وسننشرها في جزءٍ تالٍ

السجل وفكاهاته وكان في البيت سائحان غيري واحد انكليزي وواحد فرنسوي . فلما انتهيت من الزيارة طلبت سجل المكان لاقرأ فيه اسماء الزائرين

(١) ترجمتها — يا بيتاً سكنه جان جاك . انك لتذكرني روحه العظيمة ووحدته وكبرياءه ومصائبه وجنونه . فانه اجترأ على ان يجعل حياته وقفاً للمجد والحقيقة . ولذلك كان تارة يضطهده الناس حسداً وتارة هو نفسه يضطهد نفسه

فيها فوق رأسي تغريدًا حرّك عواطفي وهاج شجني . وكنت ساكتًا مبهوتًا مدة الطريق فكلمني السائق مرتين فلم اجبه الا اشارة . وبعد ٣٠ دقيقة انتهيت الى البيت



بيت روسو

يدعى (Les Charmettes) اي الفتان وسمي كذلك لان النظرة منه في الجبال والاحراش والبلدة تفتن الالباب

فلما صعدت الطريق الضيقة المؤدية اليه ووضعت قدمي في عتبة الباب احسست بقشعريرة في بدني . جان جاك جان جاك هوذا شخص من الف او من مليون اضرّته مبادئك وجاء يشكو ضرره لك . منذ ١٥ سنة كنت اتمنى زيارتك وهاءنذا في بيتك . ولا تسلني هل هذه الزيارة زيارة تثبيت ام زيارة وداع فانني جئتك ضجِرًا تَعِبًا من خدمة لا يجني صاحبها اذا اخلص النية فيها سوى الاضطهاد والعدوان

والبيت تحيط به حديقة من جانبيه . وامامه حديقة كبرى تزرع اليوم بقولاً . وهو مطوّق في وسطه بشجرة تسمى « لا كليسين » ذات زهر وردي يجعل للبيت هيئة غزلية جميلة . وعلى جداره امام باب الدخول بلاطة نُقشت عليها الابيات الفرنسوية التالية

بيتاً فوق شمبيري في الخلاء والفضاء بين الاحراش والطيور. وقد اقام روسو فيه مع مدام دي وارين من سنة ١٧٣٦ الى سنة ١٧٤٠ اي اربع سنوات ذاق في اثنائها السعادة الحقيقية اي المعيشة بسذاجة وراحة في حضن الطبيعة مع نفس كريمة يحبها وتحبه

تاثيرها عليه ان الذين اكرموا بيت روسو ومدام دي وارين هذا الاكرام لم يكرموهما لما كان بينها وبين فيلسوف جنيف من الحب والوداد فان هذا عاديٌّ يكون كل يوم بين الكتاب والشعراء وربات الظرف والجمال. وما برح الكتاب والشعراء خصوصاً من كان منهم ارقَّ احساساً وادقَّ شعوراً اكثر الناس تعرُّضاً لهذا الداء الذي يسمونه حباً. وانما اكرموا البيت وصاحبته لما كان لهما من التأثير العظيم على عقل روسو وقلبه. فالوحدة والطبيعة غرستا فيه منذ شبابه بذور الدعوة للرجوع الى الطبيعة المشحونة كتبه بها في كل سطر من سطورها. واخلاق مدام دي وارين الكبيرة كبرت اخلاقه وغيرت مشربه فبعد ان كان فتى منكمشاً منقبضاً منخفض الراس لاعتياده ذل الخدمة معتاداً السرقة في بعض الاحيان كما قصَّ ذلك في تاريخ حياته واذا به قد اصبح رجلاً «بكل معنى الكلمة». وقد قصَّ في تاريخه عدة قصص بهذا الشان اليك واحدة منها. لما توفي كلود آنه وكيل اشغال مدام دي وارين بكى عليه روسو بكاءً شديداً لانه كان يحبه.. ولكنه في اثناء بكائه فكَّر انه قد ورث ثوبه الاسود الجميل فاظهر لمدام دي وارين سروره بذلك. فصعقت مدام دي وارين لهذه العاطفة الرديئة فحولت وجهها وصارت تبكي. فانطرح روسو على عنقها. قال: ومن هذا الحين خرجتْ الى الابد كل عاطفة دنيئة من نفسي

فيا سحر الحب والوداد انك لتفعل في النفوس ما لا تفعله كل قوات العالم

زيارتي بيت روسو وصلت الى شمبيري في منتصف الليل فنمت بقية الليل في «اوتل البوسطة». ومنذ وطأت قدمي ارض شمبيري صرت احسُّ بحمَّى جان جاك تدبُّ في مفاصلي. فقلتُ غداً سارى البيت الذي نام فيه جان جاك واتفيأُ الاشجار التي تفيأَها وادوس الارض التي داسها واسمع صوت الاطيار والانهار التي سمعها. فلم انم الا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. ولما انشق حجاب الفجر نهضت مسرعاً فاستاجرت مركبة (١) وسرنا من شارع جان جاك روسو نحو الوادي والاكمة وراءه ويُصعد اليهما في طريق مخططة سهلة. وكانت الساعة السادسة صباحاً والنسيم يداعب اغصان الحرش على جانبيَّ والاشجار تظللني في مسيري والطيور الغريبة الصوت الرخيمة الغناء تغرد

(١) الاجرة ٦ فرنكات ذهاباً واياباً مع انتظار ٣٠ دقيقة امام البيت

وتلطفاً فتدعوه هي Mon petit « يا صغيري » . وقد بقي يسميها كذلك حتى في كتبه . فلما رأت مدام وارين ان روسو بلغ العمر الذي يُخشى منه على الشاب ان ينظر الى الجنس الثاني نظراً مخصوصاً جاءته واقترحت عليه اقتراحاً غريباً . قال شاتوبريان الكاتب المشهور : ان روسو رغبةً منه في ان يكتب صفحات متناهية في البلاغة والجمال قد فضح امرأة شرّ فضيحة بما كتبه وفصّله عنها

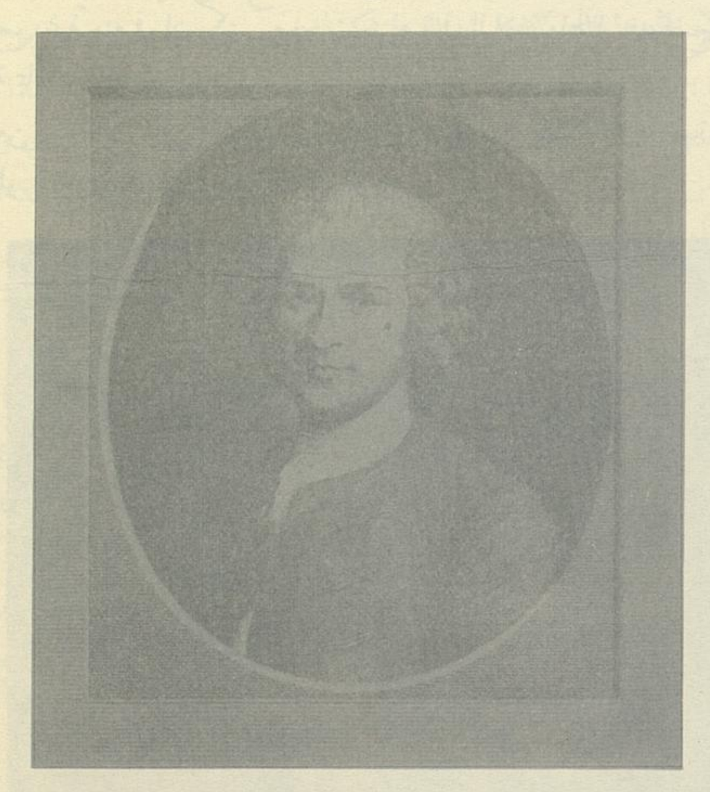
ومن هذا الحين عاش الفتى روسو مع مدام دي وارين معيشة الزوج مع زوجته . ولما توفي كلود آنه اصبح الفتى روسو صديقها الوحيد



روسو ومدام دي وارين في القاعة

وكانت مدام دي وارين امراة قد اعتادت التبذير واثقلتها الديون فلشدة حاجتها الى المال صارت تشتغل « بالكيمياء القديمة » نعني انها كانت تطلب تحويل المعدن الدنيء معدناً ثميناً . فصار بيتها في شمبيري مقصداً لجميع المشعوذين الذين يدّعون هذا العلم . فرغبة في الفرار منهم ومن سائر القوم الذين كانوا يزعجون البيت وسكانه اقترح روسو على خليلته ان يخرجا من البلدة ويعتزلا الناس في بيت بين الاحراش خارجاً عنها . فذهبا واستاجرا

عرَّفه بعض الذين اهتموا به الى مدام دي وارين وارسلوه اليها لتسعى في نفعه. فادخلته مدام دي وارين بيتها واهتمت لامره فوصل روسو الى يدي مدام دي وارين ونفسه مشوَّهة تشويهاً قبيحاً ذكره في كتبه ولكن جسمه ومنظره كان لطيفاً مقبولاً. ورسمه



جان جاك روسو في شبابه

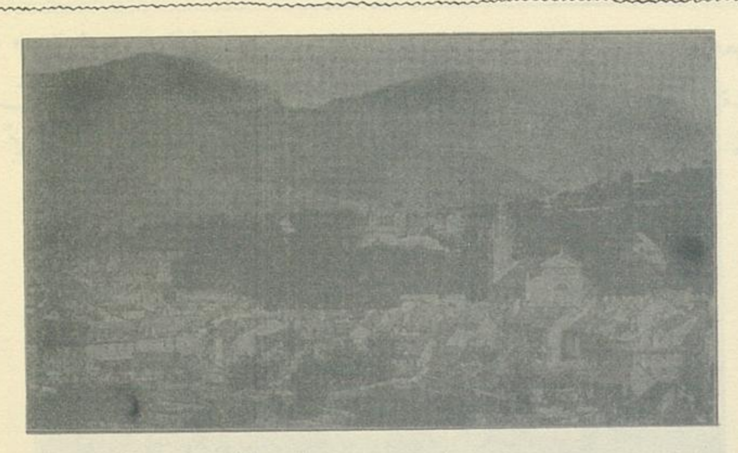
الموجود في هذا الفصل هو رسمه بعد دخوله الى بيتها. وكان لمدام دي وارين خادم يدعى (كلود آنه) رفعته من درجة الخدمة الى درجة الصديق وعهدت اليه زمام بيتها. فلما دخل روسو الى البيت ادرك ما كان بينها وبين وكيل اشغالها من «الصلات الخصوصية» وكان بيت مدام وارين مقصداً لاكابر الرجال والقواد الذين كانوا يمرّون بشمبيري في اثناء الحروب بين فرنسا وسردينيا والامارات الايطالية لان شمبيري على الحدود بين فرنسا وايطاليا. وكانت مدام وارين تعيش في بيتها بين اولئك الاقوام الذين يترددون عليها لخطبة صداقتها ووِدادها معيشة رجل لا معيشة امرأة. وقد اعجبها روسو ولطفه الصبياني كما اولع هو بها اول ما وقع نظره عليها. وكان يدعوها «ماما» **Maman** اي «يا اماه» تحبباً



مدام دي وارين

ولما عرف روسو مدام دي وارين كان في السابعة عشرة من عمره وكان ضعيفاً ضئيلاً طاردته المصائب واذله الفقر. فانه استُخدم اولاً في محل «مسجّل» ثم عند نقاش وكان فكره المطلق ورغبته في المطالعة يزهدانه بهذه الصناعة. ففرّ من جنيف مسقط رأسه (١) واستخدم في منازل الكبار كخادم ودخل احد الاديرة ليصير راهباً. وما زال تائهاً طريداً حتى

(١) لم يكن روسو فرنسوياً بل جنيفياً وقد قال عن نفسه في تاريخ حياته انه تلقى حب الحرّية والجمهورية من تراجم فلوطرخس وجمهورية جنيف وطنه



مدينة شمبيري Chambery

« جبل نيفوله » Nivolet نصب عليها صليب علوه ١٨ مترًا ولكنه يظهر فوق المدينة كأنه بقدر شبر لارتفاع الجبل اذ يعلو ١٥٥٨ مترًا عن سطح البحر . وبيت روسو فوق هذه البلدة الى شمالها وهو في وادٍ مشرف على البلدة مقابل جبل نيفوله (انظر يمين الرسم في الحرش)

قصتهما ليس الغرض في هذا الفصل ان نبسط ترجمة روسو ونذكر شيئًا من تاريخ حياته . فان فيلسوفًا كبيرًا كهذا الفيلسوف الذي ازعج الارض كلها بمبادئه وافكاره لا يمكن ان يترجم في فصل او فصلين . فنرجئ الآن ترجمته وتلخيص مبادئه وكتبه الى فرصة اخرى . وسنبتدئ ذلك في الجزء التالي اذ نلخص فيه ما كتبه عن مدام دي وارين ومعيشته معها في شمبيري . اما الان فنقتصر على ما يلي لاطلاع القارئ على لمحة من قصتهما

كانت مدام دي وارين سيدة من النبلاء يُعرَف ذلك من اسمها . وكانت بروتستنتية فلما تركت مذهبها واعتنقت الكاثوليكية جعل لها الملك راتبًا تقبضه شهريًا وكانت تعيش في بلدة شمبيري لما قصدها صاحبنا روسو . ولسنا نصف هذه المرأة لان روسو في كتاباته سيصفها وصفًا دقيقًا وانما نقول انها لما كانت متزوجة اتخذت رجلاً يدعى المسيو دي تافل معلماً يعلمها الفلسفة . وكانت شديدة الامانة لزوجها فلما رأى هذا المعلم الشقي (كما يسميه روسو في كتابه) تدرعها بدرع الامانة الزوجية وعجزه عن افساد قلبها لاستمالتها واجتذابها اليه عمد الى طريقة اخرى تمكّنه من مراده فصار يصدم « عقل » المرأة بدلــ صدمه « قلبها » اي انه صار يأتي عليها مبادئ تحلّ مبادئها وتفسد عقلها حتى تمكن منها وابطل اعتقادها القديم في الواجبات الزوجية والعائلية مما لا محل لبسطه هنا

الذين يركبون القطار معي من محطة الى محطة · اما باريز فحدث عنها ولا حرج · فقد وفقني الله فيها الى صديقين اطلعاني منها في اسبوع واحد على امور ما كنت لاطلع عليها وحدي في شهر · فمتى كتبتُ هذه السياحة التي استغرقت شهرًا تقريبًا وجد فيها القارئ من المعلومات المفيدة والملاحظات الاجتماعية والطبيعية والادبية ما يلذ ويفيد · وحسبك نوادر وحوادث السفر في الباخرتين من الاسكندرية الى مرسيليا ومن الهافر الى نيويورك · وسابدأ بها في الجزء التالي

اما الان فاقتصر في هذا الفصل على زيارتي لبلدة شمبيري التي هي من اهم حوادث سفري وقد قصدتها خاصةً مع انها تبعد ٥٩٢ كيلومترًا عن باريز

عهد منذ ١٥ سنة قال الفيلسوف تولستوي لبعض محدثيه : كنت في شبابي اعتبر جان جاك روسو الهًا واعبده عبادة · وقد علقت صورته بعنقي كما تعلَّق صور القديسين · قلتُ وقد اولعت في زمن الشباب — وهو زمن صرتُ اراه بعيدًا وان لم يكن ببعيد — بمطالعة كتب روسو ولعًا شديدًا · ولما قرأت كتابه « الاعتراف » ورأيت فيه وصفه لبلدة شمبيري ومعيشته في بيت فيها هو وحبيبته مدام دي وارين وبسطه قصته معها ببلاغة كبلاغة الآلهة تحركت نفسي شوقًا الى ذلك الوادي والحرش والبيت الذي وصفه المؤلف وقلت في نفسي انني عند اول مرة تطأُ فيها قدمي ارضَ فرنسا ساقصد بدون شك بلدة شمبيري لزيارتها وزيارة الوادي الذي عاش روسو فيه مع حبيبته · فهناك مصدر الغزل والحب والشعر · هناك الحرَم المقدس الذي لجأَ اليه الفتى روسو من مصائب الدهر فوجد فيه نفسًا كبيرة في جسم امرأَة ناشزة خرجت عن الطريق القويم فاستمدَّ كبر نفسه من نفسها وعظمته من عظمتها · فكوّنت معيشته معها بين الاحراش والازهار في وسط الطبيعة بمعزل عن الناس روحه تكوينًا جديدًا وجعلتها كما ظهرت بعد ذلك في كتبه التي قلبت وجه العالم وغيرت افكار البشر في الارض لان انفجار الثورة الفرنسوية يُعزى اليه

شمبيري شمبيري بلدة عدد سكانها اليوم ٢٢ الف نفس وهي مركز مقاطعة السافوى · ومقاطعة السافوى هذه كانت من قبل ملكًا لعائلة سافوى المالكة اليوم في ايطاليا واليها نُسبت هذه العائلة ولكنها ضُمت الى فرنسا في سنة ١٨٦٠ · واشهر ما في المدينة متحفها وكنيستها وعلى الاخص القصر الملكي الذي كان يسكنه آل سافوى لما كانت شمبيري عاصمة لامارتهم · وهي قائمة في وادٍ منفرج تحيط به جبال الالب من كل الجهات تكتنفها الاحراش والطبيعة من كل صوب · فكأَنها جعلت هناك للجمال والحب · وفوقها قمة

خمس عشرة سنة (١) ما لا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً »

وفي الجزء التالي سننشر تتمة هذا التمهيد لذي نبسط فيه تاريخ صلات الجامعة بالاستاذ ثم ننتقل الى النظر في مبادئه وارائه واعماله وصفاته ونقارن بينها وبين مبادىء استاذه جمال الدين

مشاهير المتقدمين والمتاخرين

حب روسو ومدام وارين

(زيارة صاحب الجامعة بيتهما في شمبيري)

الذي ابتاعته الحكومة وجعلته مزاراً عمومياً يقصده السياح من اوروبا واميركا

سياحة صاحب الجامعة لقد شاهدت في سياحتي من الاسكندرية الى نيويورك مشاهد عظيمة ورأيت اموراً بديعة وخطر لي في اثنائها افكار كثيرة الا ان فكري لم يسترح بعد لتقييدها وتسطيرها على صفحات الاوراق . فقد زرت في سياحتي هذه مرسيليا ومعرضها الاستعماري العام وشاهدت الاقسام المراكشية والجزائرية والتونسية فيه . ثم زرت باريز وليون وكرنوبل وشمبيري وفالانس وكيلوس وحمامات اكس . وقد قطعت مقاطعة السافوى البديعة التي هي درة في عقد البلاد الفرنسوية من اقصاها الى اقصاها . ومررت فيها بين مضائق جبال الالب البديعة وسط تساقط المطر ولذع البرد وخرير الانهار وصفير البخار . فكنت في القطار كالمأخوذ انتقل من نافذة الى نافذة وانا اقول : هذه جنة الله في الارض . واحياناً اتعمد نسيان نفسي في القطار فجرى بي مرة عشرين ساعة وانا ألاحظ البلاد كأنها بانوراما تنبسط امامي الى ما شاء الله وادرس احوال الناس

(١) لما نشر هذا الرأي في الجامعة واطلع عليه احد جواسيس الاستانة جاء يسالنا (الا تظنون ان محمد عبده يريد بهذه المدة « ١٥ سنة » المدة التي مرّت على ملك جلالة السلطان) فضحكنا وقلنا له (اذهب واستنطقه ولا تستنطقنا)

والحرية » فكتب الاستاذ الينا الكتاب التالي

عزيزي الفاضل

قرأت الجامعة عددها الثالث فاذا كله حسن واحسنه الكلام في خير الامرين منحة الحرية للشرقيين قبل ان يستحقوها او اعدادهم لها قبل ان ينالوها . واختياركم الثاني . وقد ذكرني ذلك كلاماً كنتُ اقوله من اثنتي وعشرين سنة وهو تاريخ حركة اذهان الشرقيين في شؤونهم واحسامهم بما وصلوا اليه وما سيقبلون عليه . فاستحسنت ان ابعث به اليكم حتى اذا رايتم نشره في العدد الرابع نشرتموه على انه كلام سُمع عني وحفظه بعض اخواني كما هي الحقيقة لا على اني بعثتُ به اليوم لان الناس يعلمون اني لا اراسل الجرائد وليس فيما تذكرونه من ذلك شيئاً (كذا) يخالف الحقيقة . وهذا هو ما سبق قوله

وهنا اورد شذرة في عشرين سطراً من كتابته الدقيقة المرصوصة المتماسكة كانها دبيب النمل . وخلاصة رأيه ان الشرق لا ينهض الاَّ برجل (مستبدّ عادل) يفعل ما فعله بطرس الاكبر في روسيا ومحمد علي في مصر مثلاً . ومما ذكره في هذا الرأي :

« انما ينهض بالشرق مستبد عادل . (مستبد) يُكره المتناكرين على التعارف ويُلجئ الاهل الى التراحم ويقهر الجيران على التناصف . يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ان لم يحملوا انفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة . (عادل) لا يخطو خطوة الاَّ ونظرته الاولى الى شعبه الذي يحكمه فان عرض حظ لنفسه فليقع دائماً تحت النظرة الثانية . فهو لهم اكثر مما هو لنفسه

« يكفي لابلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة وهي سن مولود يبلغ الحلم يولد فيها الفكر الصالح وينمو تحت رعاية الوليّ الصالح ويشتد حتى يصرع من يصارعه (الى ان قال) حتى اذا عرفت الافكار مجاريها بالتعريف . وانصرفت الى ما أُعدت له بالتصريف . وصحّ الشعور بالتعليل . واستقامت الاهواء بالتعديل . أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السن قضمه والناقه من المرض هضمه . واول ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ثم بعد سنين تأتي مجالس الادارة لا على ان تكون آلات تُدار بل على ان تكون مصادر للاراء والافكار . تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية . نعم لا يتيسر لرجل واحد ان يشهد الامر من بدايته الى نهايته ولكن الخطوة الاولى هي التي لها ما بعدها ويكفي لمدها خمس عشرة سنة (وما هي بكثير في تربية أمة فضلاً عن أمّة) . هل يُعدم الشرق كله مستبداً من أهله . عادلاً في قومه . يتمكن به العدل ان يصنع في

حين كنا نُعدّ كتابنا وقع في يدنا كتاب « الردّ على الدهريين » تأليف السيد جمال الدين الافغاني المشهور الذي ينسب اليه معظم الفضل في يقظة مصر الادبية في هذا العصر . والكتاب مترجم من الفارسية بقلم الشيخ محمد عبده ومساعدة احد مجيدي الترجمة . فاخذنا الكتاب لنطالعه في الباخرة ولما أتينا عليه ادهشتنا فيه امور ما كانت تخطر لنا ببال . فعزمنا يومئذٍ على ضمّ السيد جمال الدين الافغاني الى تلميذه الشيخ محمد عبده في كلامنا عن ترجمة الشيخ ومبادئه . وبذلك يصبح الكلام في كبيري علماء الاسلام في العصر الاخير : الافغاني ومحمد عبده

ولما كنا لم نعدّ الى الان جميع المواد التي يقتضيها هذا البحث المهم فقد ارجأنا الشروع فيه الى الجزء التالي . اما الآن فاننا نذكر طرفاً من تاريخ صِلات الجامعة بالشيخ محمد عبده قبل المناظرة في مسألة ابن رشد وبعدها . لاننا نرجح انّ قراء الجامعة الذين تتبعوا تلك المناظرة التي كان لها ذلك الدويّ البعيد في جميع أنحاء العالم العربي يلذ لهم ان يقفوا على شيء من ذلك . لا سيما وان آثار اعاظم الرجال حتى اصغر اعمالهم واقوالهم ورسائلهم ينبشها الغربيون من مطامرها بكل الطرق الممكنة . وما كل يوم في الشرق رجل كمحمد عبده

لم نجتمع قط بالشيخ محمد عبده الا انه دارت بينه وبين الجامعة رسائل تبلغ العشرين . واول رسالة كتبها بعد صدور الجزء الاول من الجامعة اول ظهورها . فانه لما اطلع على الجزء الاول عهد الى صديق له في الاسكندرية من اكابر المصريين ان يبلغ الجامعة رضاه عن خطتها وعن مشربها فبعثتُ اشكره على التفاته هذا اليها . فورد منه الجوابي التالي

حضرة الفاضل المحترم فرح افندي انطون

لا تأخذ عليّ في الابطاء بالاجابة فمن الشواغل ما لا يذكر . وقد يمنع عن الجواب واكبر . تذكر ثنائي على مشرب الجامعة وانما يثني على العامل عمله . ويحدّث عن الفاضل فضله . ورجائي ان يتمّ لك ما احسنتَ قصده . وان يصحبك النجاح فيما وجهت عزمك نحوه . والسلام

محمد عبده

١٩ ابريل سنة ١٨٩٩

ثم صدر الجزء الثالث من الجامعة لسنتها الاولى وفي صدره مقالة عنوانها « الاخاء

الشيخ محمد عبده

جمال الدين الافغاني

ما بين مبادىء الشيخين من المشاركة · ما فيها من الضعف والمخالفة لمبادىء العلم الحديث · امتياز محمد عبده على الافغاني بهذا الشان · تاريخ صلات الجامعة بمحمد عبده · رايه في نهضة الشرق

تمهيد

١

لما توفي العلامة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية السابق أبَّنته جميع الجرائد العربية في جميع انحاء المعمورة تأبيناً يليق بمثله · وكان كثيرون ينتظرون تأبين «الجامعة» ورأيها في مبادئه واعماله لما قام بينها وبينه رحمه الله تعالى من الخلاف والمناظرة في مسألة «ابن رشد وفلسفته» · وبما ان هذا هو اول جزء من الجامعة يصدر بعد وفاة الاستاذ فقد راينا ان نجيب طلبهم وطلب التاريخ الذي يقضي بالنظر في آثار واعمال مشاهير المتقدمين ليُتخذ منها عبرة وعظة للمتأخرين · وقد قيل ان الرجل العظيم كالجبل العظيم فما دمتَ قريباً منه يظهر لك صغيراً فاذا بعدَ عنك بدا لك عظيماً جليلاً

وقد اسدل الستار على محمد عبده منذ زمان ورعى الدود جسمه الضعيف دون ان يقدر على الوصول الى روحه الخالدة في بطون الصفحات التي سطرها والفتاوى التي أفتى بها ومشروعات الحكومة التي كان من مساعديها ونفوس تلامذته ومريديه الذين قال عنهم اللورد كرومر في تقريره الاخير انهم حزب له وانه اذا نما هذا الحزب فانه ينفع مصر والاسلام نفعاً عظيماً · فغرضنا الان في هذه المقالات المتسلسلة بعد وفاة (الشيخ الرئيس) — وهو جدير بهذا اللقب كابن سيناء لان محمد عبده حلَّ محله في العالم الاسلامي في هذا العصر — قلنا غرضنا ان نبحث في هذه المقالات في مبادىء الشيخ محمد عبده واعماله وفلسفته بحثاً يعرّف الرجل الى قراء اللغة العربية حق المعرفة شخصياً وعلمياً ودينياً واخلاقياً · وقد كان هذا الامر في نفسنا منذ زمان · فاتفق انه قبل ركوبنا الباخرة في الاسكندرية

لم يكن يقتضي الكثير من الوقت لندعوه عالماً علاّمه
ماهر في الحديث سامعه يصغي طويلاً ولا يملُّ كلامه
لا انتقام لا حدة عنده لا غيبةٌ لا تذمرٌ لا ملامه
جامعٌ من مروءة ووفاءٍ من اباءٍ وعفةٍ واستقامه

***

نحن ندري بانه ليس يرتاح الى المدح وهو ليس مرامه
فلقد قال انه واقف في خدمة الشعب سعيه واهتمامه
وعرفنا من المجلة في مصر رجاه وشانه ومقامه
ولئن نام مع مجلته ابس مطيلاً نوامها ونوامه
فبعيد القليل ننظره في عالم الصحف ناشراً اعلامه
ملكاً يامر الكلام فينقاد الى عرشه يطاْطئ هامه
وسنلقاه للصحافةِ والسلم ونشر العلوم اقوى دعامه

***

وصباح فيه تزاحمت الصحب فلاقاه كلهم بالكرامه
وهجمنا عليه !! يلثمه ها ذا وهاذا يلقي عليه سلامه
وبه قد تمسك الكل حتى اوشك الصحب ان يروموا اقتسامه!
فعلى الرحب ايها الضيف ان الكل يدعو لكم بطيب الاقامه
جئتنا بالسلام فالحمد لله لداعي وصولكم بالسلامه

اسعد رستم